سمات الخطاب القرآني للمنافقين

د. خالد بن موسى الحسني الزهراني*

بسم الله الرحمن الرحيم

سلم البحث في ١١/٣/١٤٣٦هـ اعتمد للنشر في ٢٨/٤/١٤٣٦هـ

ملخص البحث:

إن من جملة خطابات القرآن الكريم خطابه للمنافقين، وهذا الموضوع يعد من الموضوعات المهمة لارتباطه بالقرآن الكريم من جهة، ثم تعلقه بفئة مندسة في داخل الصف المؤمن متخفية بعقيدتها حريصة على إخفاء مكرها؛ لذا كان الطريق الصحيح للتعامل معها طريق الوحي المنزل من العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية. وهذا البحث المعنون له بـ (سمات الخطاب القرآني للمنافقين) يخدم هذا الموضوع وفق الخطة التالية: المقدمة: وفيها أهمية الموضوع ومنهج البحث وخطته. المبحث الأول: وقد اشتمل على تعريف النفاق لغة وشرعًا؛ لكون النفاق من المصطلحات الشرعية التي وردت في الكتاب والسنة، وليكون ذلك بمثابة المدخل الذي لابد منه للوقوف على حقيقة النفاق في الشرع. المبحث الثاني: وفيه أصناف المنافقين في القرآن، وهي بالتأمل والاستقراء ثلاثة: (كفار منافقون، ومنافقون مذبذبين، ومنافقون ارتدوا بعد إسلامهم)، ببيان حقيقة كل صنف منهم، وبعض الآيات الواردة فيه. المبحث الثالث: وهو لب الموضوع، وقد اشتمل على ثمان سمات لخطاب القرآن للمنافقين، وهي: تأكيد القرآن على استمرار هذا المرض في الأمة. ورود آيات المنافقين في سياق الغيبة لا الحضور. اهتمام الآيات بتسجيل المواقف والعناية بإبراز الصفات من غير تعرض للأشخاص. ربط الآيات بين ادعاء المنافقين للإيمان وبين خبيئة عقيدتهم الفاسدة وبين ظاهر حالهم. تأكيد القرآن على الفرق بين المنافقين وبين أهل الإيمان في الأفعال أو نهاية الحال والمآل. تأكيد القرآن على فساد سعي المنافقين. عناية الخطاب القرآني بإبراز الصفات النفسية المسببة للنفاق. وعظ المنافقين في السياق القرآني أصالة أو بتوجيه أهل الإيمان لذلك.

Abstract

The present research is an investigation into the quranic discourse which addresses the hypocrites who hide their real covert faith. Therefore, It

---

* الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الإسلامية، ووكيل كلية العلوم والآداب بجامعة الباحة، المملكة العربية السعودية.

is believed that the best approach to disclose such people is through the revealed knowledge from the omniscient. The current research entitled "Qur'anic Discourse to the Hypocrites" consists of three sections: the introduction includes the research significance and methodology. The first section includes definitions of hypocrisy in Islam. In the second section, the researcher reads out the three types of hypocrites in the Holy Qur'an: (disbelieving hypocrites, skeptical hypocrites, apostate hypocrites). The third section addresses the main characteristics of the Qur'anic third-person discourse about the hypocrites: the sustainability of hypocrisy in the Muslim Ummah, the Qur'anic references to hypocrites by their detestable traits and features but not by their names, the Qur'anic association between the hypocrites' allegation of faith in Islam and their covert repulsion from Islam, the differences between how life of the hypocrites ends up to be in contrast with that of the true believers, the Qur'anic confirmation of the consequences of hypocrisy, Qur'anic display of the psychological traits that lead to hypocrisy, Qur'anic sermons to the hypocrite either directly or indirectly. The research concludes with some recommendations.

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن على نبيه محمد هداية وإرشاداً، وبياناً وإيضاحاً، والصلاة والسلام على السراج المنير والهادي البشير، الذي تعامل مع من حوله بما يناسب حال كل منهم، فكان هديه تطبيقاً عملياً لإرشاد القرآن، ونبراساً لأتباعه من أمته بعده إلى يوم البعث للديان، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما تعاقب الليل والنهار وغردت الحمائم على الأغصان، وبعد: فإن المتأمل في كتاب الله تبارك وتعالى يلحظ بوضوح أن القرآن الكريم قسم الناس من جهة الدين والإيمان بالشرائع السماوية إلى ثلاثة أصناف: مؤمنين، وكافرين، ومنافقين، وكان لكل من هذه الأصناف الثلاثة ميزاته وأوصافه التي اتصف بها، ولكل منهم خطاباته التي تناسب حاله، فحين نتأمل القرآن الكريم يستخدم مع أهل الإيمان أسلوب الترغيب في التزام الأوامر واجتناب النواهي بوصفهم بأجمل الصفات وأبهى الخلال، نجده في المقابل يستخدم مع أهل الكفر والعناد أسلوب التهديد والتقريع والتوبيخ، تحذيراً لهم وإيقافاً على حقيقة قدرهم(١)، وهو مع أهل النفاق يس تخدم أسلوب المكاشفة عما في ضمائرهم؛ لإعلامهم بأنه تعالى مطلع على مخبآت نفوسهم، لعلهم يفيئوا إلى ظلال الإيمان

وحياض الإسلام، ولإيقاف أهل الإيمان على حقيقة حالهم ليحذروا منهم، كل هذا وأكثر يتضح للمتأمل في كلام الله تبارك وتعالى.

ومع أهمية الوقوف على الهدايات القرآنية في خطاب الله تعالى لكل صنف من هذه الأصناف الثلاثة؛ إذ هو الطريق الصحيح في التعامل معهم إلا أن أهم ذلك في ظني ما يتعلق بالمنافقين؛ فإن الأمة لم تبتلَ منذ عهد النبوة وإلى زماننا بل إلى أن تقوم ساعة أهل الإيمان ويرث الله تعالى الأرض ومن عليها بمثل المنافقين، فهم الحربة في خاصرة الأمة، التي نال أعداء الإسلام بسببهم ما نال من مكاسب.

وسنحاول في هذا البحث الوقوف على شيء من سمات خطاب الله تعالى في القرآن لهذه الفئة المتلونة الماكرة، بتأمل الآيات الواردة في هذا الباب؛ لما لذلك من أهمية بالغة تتضح للمطالع فيما يلي.

أولاً: أهمية الموضوع:

المنافقون المظهرون للإيمان والصلاح المبطنون للكفر الساعون بالشر لأمة الإسلام هم شر أعداء الأمة، يكفي في الكشف عن عظم خطرهم تحذير الله تعالى لرسوله ﷺ منهم بخطاب يدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤]، فقصر العداوة فيهم مع وجود غيرهم من الكفار.

والبحث فيما يتعلق بهم في نصوص الوحيين أمر له أهميته البالغة، وبخاصة في زمان انتشار شرورهم وجد سعيهم، ومن جملة ذلك تسليط الضوء على سمات الخطاب الشرعي لهم، سواء في خطاب القرآن أو في خطاب السنة مضافًا إلى ذلك طريقة تعامله ﷺ معهم. وتتضح أهمية البحث في هذا الموضوع من خلال النقاط التالية:

١- أنه جزء من الدراسات القرآنية، التي تعنى بالقرآن والبحث فيه، وإبراز جانب من جوانبه المهمة، وهو ما يتعلق بجانب البحث في أسلوبه.

٢- الجهة المستهدفة بالبحث، وهم المنافقون، أعداء الأمة الأخطر على مر تاريخها.

٣- أن البحث في سمات الخطاب القرآني للمنافقين يزود المسلم بالطريقة المثلى في التعامل معهم، بوضع الأمور في نصابها الصحيح من غير إفراط أو تفريط.

٤- أن العناية بدراسة هذا الموضوع وأمثاله له أهميته في كونه يستهدف فئة متخفية لا مستعلنة ظاهرة، فالطريق الصحيح في كشف حالها وصحة طريقة التعامل معها الرجوع إلى طريقة الذي لا تخفى عليه خافية، ويستوي عنده إعلان العبد وإسراره، وهو الله تعالى العليم، أو المسدد بالوحي، الذي لا ينطق عن الهوى، محمد ﷺ.

ثانيًا: منهج البحث وخطته:

اعتمدت في بحثي لهذا الموضوع على منهج الاستقراء، وذلك بسبر آيات القرآن الواردة في المنافقين، ثم التأمل فيها وتقسيمها حسب ما تحويه من أصناف وسمات بحسب اجتهادي، مع تدعيم قولي بما تيسر من أقوال أئمة التفسير المعتبرين من غير إطالة.

وقد حرصت في النقل عنهم ما أمكن على عباراتهم التي تبين المقصود؛ لما أرى من أهمية بالغة في تعويد الراغب في تفسير القرآن على الرجوع إلى الكتب المعتبرة في ذلك، محافظة على الفهم الصحيح لكتاب الله تعالى، وصيانة له من الفهم المغلوط، في زمان فوجئ أهله بمن يدعوا إلى فهم القرآن على طريقته، من غير ضرورة في زعمه إلى الرجوع لأقوال أئمة التفسير.

وقد سرت في بحثي هذا على الخطة التالية:

المقدمة: وفيها: أهمية الموضوع، منهج البحث وخطته.

المبحث الأول: معنى النفاق لغة واصطلاحا.

المبحث الثاني: أصناف المنافقين في القرآن:

الصنف الأول: كفار منافقون.

الصنف الثاني: منافقون مذبذبين.

الصنف الثالث: منافقون ارتدوا بعد إسلامهم.

المبحث الثالث: سمات خطاب القرآن للمنافقين:

أولًا: التأكيد على استمرار هذا المرض في الأمة.

ثانيًا: ورود آيات المنافقين في سياق الغيبة لا الحضور.

ثالثًا: الاهتمام بتسجيل المواقف والعناية بإبراز الصفات من غير تعرض للأشخاص.

رابعًا: الربط بين ادعاء المنافقين للإيمان وبين خبيئة عقيدتهم الفاسدة وبين ظاهر

حالهم.

خامسًا: تأكيد القرآن على الفرق بين المنافقين وبين أهل الإيمان سواء في الأفعال أو نهاية الحال والمآل.

سادسًا: التأكيد على فساد سعي المنافقين.

سابعًا: عناية الخطاب القرآني بإبراز الصفات النفسية المسببة للنفاق.

ثامنًا: وعظ المنافقين في السياق القرآني أصالة أو بتوجيه أهل الإيمان لذلك.

الخاتمة.

المبحث الأول
معنى النفاق لغة واصطلاحا

قبل الحديث عن خطاب الله تعالى في قرآنه للمنافقين والوقوف على أهم سمات ذلك الخطاب لابد من بيان معنى النفاق، أصله في اللغة ثم مقصود الشارع به في نصوصه، ليكون التصور صحيحاً.

أولاً: النفاق لغة:

أصله الفعل الثلاثي (نَفَقَ)، وهو في اللغة يدل على أصلين في المعنى:

الأول: انقطاع الشيء وذهابه، تقول: نفقت الدابة، أي هلكت وماتت، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الإسراء:١٠٠]، أي خشية ذهاب ما بأيديكم بالنفقة.

الثاني: المدخل في الأرض، وهو السَرَب فيها الذي له مخرج من مكان آخر.

ويمكن أن يجتمعا في أصل واحد هو الخروج؛ لأنا إذا قلنا: نفقت الدابة، أي ماتت، فقد خرجت من الحياة إلى الممات، وكذلك السَرَب في الأرض هو مخرج إلى مكان آخر، ومنه النافقاء: موضع اليربوع الذي يرقق تربته في جحره، فإذا أُتي من قبل القاصعاء -أول جحره الظاهر- ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي خرج منه. وهو الأصل الصحيح للنفاق[٢]؛ لأن المنافق يدخل في الإسلام، ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه، فهو مناسب لحال المنافق، سواء في حقيقة حاله بالنسبة لفعله، أو في مكره فهو يشبه حال اليربوع في مكره بمن يتعامل معه[٣]، قال ابن منظور: (تَكَرَّرَ فِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ النِّفاق وَمَا تَصَرَّفَ مِنْهُ اسْمًا وَفِعْلًا، وَهُوَ اسْمٌ إِسْلَامِيٌّ لَمْ

تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ بِالْمَعْنَى الْمَخْصُوصِ بِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَسْتُرُ كُفْره وَيُظْهِرُ إيمانَه وَإِنْ كَانَ أَصله فِي اللُّغَةِ مَعْرُوفًا)(٤).

ثانياً: النفاق شرعاً:

النفاق كلمة عربية الأصل كما سبق، وقد تكرر استعمالها في النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، إلا أن الشارع جعلها لمعنى مخصوص، ينصرف لفظ النفاق في النصوص الشرعية إليه، قال شيخ الإسلام رحمه الله: (النِّفَاق الَّذِي فِي الْقُرْآنِ هُوَ النِّفَاقُ عَلَى الرَّسُولِ. فَخِطَابُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِلنَّاسِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ كَخِطَابِ النَّاسِ بِغَيْرِهَا؛ وَهُوَ خِطَابٌ أُسْتُعْمِلَ عَلَى وَجْهٍ يَخْتَصُّ بِمُرَادِ الشَّارِعِ؛ لَمْ يُسْتَعْمَلْ مُطْلَقًا)(٥)؛ ولذا عني العلماء رحمهم الله تعالى قديماً وحديثاً ببيان معناه وإيضاح مدلولاته؛ لكونه سبباً مخرجاً من الإسلام، ومسبباً لخسران الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

بعض ما روي عن السلف في معنى النفاق:

– عَنْ أَبِي يَحْيَى، قَالَ: سُئِلَ حُذَيْفَةُ ﷺ مَا النِّفَاقُ؟ قَالَ: الَّذِي يَصِفُ الْإِسْلَامَ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ(٦).

– وقال أبو هريرة ﷺ: تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ خُشُوعِ النِّفَاقِ، قِيلَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: أَنْ يُرَى الْجَسَدُ خَاشِعًا، وَالْقَلْبُ لَيْسَ بِخَاشِعٍ(٧).

– وعَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ ابْنَ عُمَرَ ﷺ فَقَالَ: إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى أُمَرَائِنَا فَنُزَكِّيهِمْ، وَنُثْنِي عَلَيْهِمْ، ثُمَّ نَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِمْ فَنَسُبُّهُمْ، فَقَالَ: كُنَّا نَعُدُّ ذَلِكَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ النِّفَاقَ(٨).

– وعَنْ الْحَسَنِ رحمه الله قال: كَانَ يُقَالُ: إِنَّ مِنَ النِّفَاقِ اخْتِلَافَ السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ، وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالْمَدْخَلِ وَالْمَخْرَجِ. وَأَصْلُ النِّفَاقِ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ النِّفَاقُ: الْكَذِبُ(٩).

فبتأمل النصوص السابقة عن السلف رحمهم الله تعالى نصل إلى أن النفاق: مخالفة الظاهر الباطن، بإظهار الخير وإضمار الشر(١٠).

والنفاق يقع على نوعين اثنين:

الأول: نفاق أكبر، وهو الاعتقادي، وهو مخرج من الملة والعياذ بالله، وحقيقته: أن يظهر المنافق الإيمان بالله ورسوله ولوازم ذلك، وهو في الباطن مكذب بذلك كله أو

بعضه، قال الطبري رحمه الله في تفسيره: (أهل النفاق: الذين يستسرون بالكفر ويظهرون الإيمان)[١١]، وقال شيخ الإسلام رحمه الله: (المنافقُ: هو الذي يُبْطِنُ الكفرَ ويُظهِرُ الإسلامَ)[١٢].

الثاني: نفاق أصغر، وهو العملي، وهو غير مخرج من الملة، وحقيقته: الاتصاف ببعض صفات المنافقين ظاهراً لا باطناً. وسمي نفاقاً لمخالفة المتصف بتلك الصفات بين ظاهره وباطنة من جهة، ولمشابهته للمنافقين في بعض صفاتهم من جهة أخرى.

قال ابن القيم رحمه الله: (النفاق نفاقان: نفاق اعتقاد، ونفاق عمل، فنفاق الاعتقاد: هو الذي أنكره الله على المنافقين في القرآن، وأوجب لهم الدرك الأسفل من النار، ونفاق العمل: كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: "آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان". وفي الصحيح أيضا: "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا ائتمن خان")[١٣].

والمتأمل في نصوص القرآن الكريم يلحظ بجلاء أن الله تعالى وصف أهل النفاق بمرض القلب، وهو وصف يراد به تارة أهل النفاق الأكبر المخرج من الملة، ويراد به أخرى من ضعف إيمانه من أهل الإسلام وشابه أهل النفاق الاعتقادي في بعض صفاتهم نظراً لضعف إيمانه، وهي حالة خطيرة على المكلف لأنها ربما أودت به إلى النفاق الأكبر المخرج من الملة والعياذ بالله.

والنفاق أخص من مرض القلب، ومرض القلب أعم منه؛ لأن النفاق من أمراض القلوب، وهو أعظمها وأشدها، ومرض القلب علته وخروجه عن حال الصحة.

لأن القلب إما أن يكون صحيحاً وهو قلب المؤمن الصادق، المشار إليه في حديث النبي ﷺ الذي رواه حذيفة رضي الله عنه، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ..."[١٤]، قال النووي: تشبيهه بالصفا لِشِدَّتِهِ

عَلَى عَقْدِ الْإِيمَانِ وَسَلَامَتِهِ مِنَ الْخَلَلِ، وَأَنَّ الْفِتَنَ لَمْ تَلْصَقْ بِهِ وَلَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ كَالصَّفَا، وَهُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ الَّذِي لَا يَعْلَقُ بِهِ شَيْءٌ[١٥]، أي من أمراض الشبهات والشهوات.

وإما أن يكون ميتاً والعياذ بالله وهو قلب الكافر الجاحد، كما قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ: {إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ}[النمل:٨٠]، قال الطبري رحمه الله: (إنك يا محمد لا تقدر أن تُفهم الحقّ من طبع الله على قلبه فأماته؛ لأن الله قد ختم عليه أن لا يفهمه)[١٦].

وإما أن يكون مريضاً معتلاً وهو الذي خرج عن حد الاعتدال والصحة إلى المرض والسقم، وهو مراتب متفاوتة على حسب ما قام به من داء ومرض، فمنه وهو أشده مرض النفاق الأكبر والعياذ بالله، ومنه ضعف الإيمان، وهو لبعض أهل الإسلام الذين لم يصلوا من اليقين وشواهد الحق إلى صحة القلب وسلامته.

وهذه الأقسام الثلاثة يجمعها حديث المسند عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ[١٧] فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يَزْهَرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ[١٨] مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ"[١٩].

فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ: فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ: فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ: فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ: فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقُرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَدَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ"[٢٠].

المبحث الثاني
أصناف المنافقين في القرآن

بتأمل الآيات الواردة في المنافقين يتضح للمتأمل أن تلك الآيات ذكرت للمنافقين ثلاثة أصناف، وهذه الأصناف ومع إطلاق اسم النفاق عليها واتحاد الحكم على أهلها بالكفر –والعياذ بالله– إلا أنها تختلف من حيث الحامل لها على النفاق أو أول الحال منها وإن اشتركت في نهايته. والأصناف هي[٢١]:

الصنف الأول: كفار منافقون:

وهم طوائف من الكفار سواء كانوا من المشركين أو من أهل الكتاب الذين لم

يؤمنوا أصلاً، ولكنهم أظهروا الإسلام للنيل منه، أو للسلامة على أنفسهم وخدمة مصالحهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الصنف في آيات متعددة، فمن ذلك:

١- أول آيات ذُكرت في القرآن في المنافقين، فبعد أن ذكر الله تعالى في سورة البقرة المؤمنين في خمس آيات ثم الكفار في آيتين ذكر الله تعالى المنافقين في بضع عشر آية، وكان مدار الحديث عن النفاق والمنافقين عموماً المظهرين للإسلام المبطنين للكفر، إلا أن الآيات ركزت على هذا الصنف، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩]، فأخبر تعالى عن حقيقة حال المنافقين، وهي أنهم إنما يظهرون الإسلام بألسنتهم من غير أن يؤمنوا بقلوبهم؛ ولذا كذَّبهم تعالى في دعواهم وأبان أنهم ليسوا مؤمنين على الحقيقة، وأنهم لعظيم جهلهم يعتقدون أنهم يخدعون أهل الإيمان بذلك في حين أن الحقيقة أن خداعهم هو لأنفسهم بحرمانها الحق والهداية، وإلزامها مسالك الضلال والغواية، المنتهي بهم إلى خسران الدنيا والآخرة.

ثم بين تعالى سبب امتناعهم عن الدخول في الإسلام على الحقيقة وهو كِبرُ نفوسهم، وسخريتهم واستهزاؤهم بأهل الإيمان، وأوضح بقاءهم على الكفر بإفصاحهم بذلك لرؤسائهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٣، ١٤].

قال ابن عطية رحمه الله: (قال جماعة من المتأولين: يخادعون الله والمؤمنين، وذلك بأن يظهروا من الإيمان خلاف ما أبطنوا من الكفر ليحقنوا دماءهم ويحرزوا أموالهم، ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا وفازوا، وإنما خدعوا أنفسهم لحصولهم في العذاب وما شعروا بذلك... وهذه كانت حال المنافقين إظهار الإيمان للمؤمنين وإظهار الكفر في خلواتهم بعضهم مع بعض)[٢٢].

وقال ابن كثير رحمه الله: (شَرَعَ تَعَالَى فِي بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ

الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، فإن النبي ﷺ لما هاجر إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَ بِهَا الْأَنْصَارُ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَكَانُوا فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ عَلَى طَرِيقَةِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ، وَبِهَا الْيَهُودُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ عَلَى طَرِيقَةِ أَسْلَافِهِمْ، فلمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المدينة، وأسلم من أسلم مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ قَبِيلَتَيِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ، وَقَلَّ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ الْيَهُودِ. فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ الْعُظْمَى وَأَظْهَرَ اللَّهُ كَلِمَتَهُ، وَأَعْلَى الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِيِّ بْنِ سَلُولَ، وَكَانَ رَأْسًا فِي الْمَدِينَةِ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ تَوَجَّه فَأَظْهَرَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ، وَدَخَلَ مَعَهُ طَوَائِفُ مِمَّنْ هُوَ عَلَى طَرِيقَتِهِ وَنِحْلَتِهِ، وَآخَرُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ.

فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ: يَقُولُونَ ذَلِكَ قَوْلًا، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فأكْذبهم اللَّهُ فِي خَبَرِهِمْ هَذَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وأَخْبَرَ أَنَّهُمْ إِذَا خَلَوا إِلَى مَرَدَتِهم قَالُوا: إِنَّا مَعَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فِي تَكْذِيبِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَمَا جَاءَ بِهِ، وَإِنَّمَا نَحْنُ بِمَا يَظْهَرُ لَهُمْ مِنْ قَوْلِنَا لَهُمْ: صَدَّقْنَا بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَا جَاءَ بِهِ مُسْتَهْزِئُونَ)[٢٣].

٢- في سورة البقرة أيضاً، ذكر الله تعالى هذا الصنف من المنافقين بأنهم وأن أظهروا لكم الدخول في الإسلام بألسنتهم، وفوق ذلك أنهم يشهدون الله تعالى على صدق بواطنهم، لفساد عقيدتهم في حق الله تعالى، ولكونكم لا تطلعون على البواطن إنما المطلع عليها الله تعالى، إلا أنهم في حقيقة الحال باقون على كفرهم، ودليل ذلك وشاهده بقاؤهم على الإفساد في الأرض، وهي في المنافقين عموماً إلا أنها أول ما تشمل هذا الصنف لما جاء في بعض الروايات أنها نزلت في الأخنس بن شريق، وكان على الكفر فجاء إلى النبي ﷺ فأظهر الإسلام، ثم لما خرج من عنده ومر بزرع للمسلمين أحرقه وأفسد، قال ابن عطية رحمه الله: (ما ثبت قط أن الأخنس أسلم)[٢٤]، فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥]، فأخبر تعالى بأنهم لم يدخلوا في الإسلام صادقين مخبتين، وإنما أظهروا ذلك نفاقاً والعياذ بالله[٢٥].

٣- قال تعالى في سورة النساء آية: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، ففضحهم الله تعالى بكشف حقيقة حالهم، وهو اتباع مصالحهم مع من كانت، قال الطبري رحمه الله: (يعني ينتظرون أيها المؤمنون بكم، فإن فتح الله عليكم فتحًا من عدوكم، فأفاء عليكم فَيْئًا من المغانم قالوا لكم: ألم نجاهد عدوّكم ونغزوهم معكم، فأعطونا نصيبًا من الغنيمة، فإنا قد شهدنا القتال معكم، وإن كان لأعدائكم من الكافرين حظٌّ بإصابتهم منكم، قال هؤلاء المنافقون للكافرين: ألم نغلب عليكم حتى قهرتم المؤمنين بتخذيلنا إياهم، حتى امتنعوا منكم فانصرفوا)[٢٦].

٤- في سورة التوبة وبعد أن ذكر الله تعالى أصناف أهل الإيمان بالمدينة ثنَّى تبارك وتعالى بذكر المنافقين ممن حولها أو من أهلها، فذكر طائفة منهم بلغت في مهارة النفاق مبلغاً عظيماً، حتى عدو مردة فيه، لشدة تمرسهم في الكفر والنفاق، حتى إن حالهم ليخفى عليك يا محمد مع قوة فراستك وشدة تحرصك، فقال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١]، قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: (أَعْلَمَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنَّ فِي هَؤُلَاءِ مُنَافِقِينَ لِئَلَّا يَغْتَرَّ بِكُلِّ مَنْ يُظْهِرُ لَهُ الْمَوَدَّةَ، وَكَانَتِ الْمَدِينَةُ قَدْ خَلَصَ أَهْلُهَا لِلنَّبِيءِ ﷺ وَأَطَاعُوهُ فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ أَنَّ فِيهِمْ بَقِيَّةً مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لِأَنَّهُ تَأَصَّلَ فِيهِمْ مِنْ وَقْتِ دُخُولِ الْإِسْلَامِ بَيْنَهُمْ)[٢٧][٢٨].

وهذا الصنف كما دلت عليه آيات القرآن الكريم دلت عليه كذلك شواهد الواقع من التاريخ القديم والحديث، فمن ذلك على سبيل المثال عبد الله بن سبأ اليهودي، وهو المشهور في كتب التاريخ بابن السوداء، وكان من يهود اليمن، في زمان عمر ، وخلافة عثمان ، وعلي ، فأظهر الدخول في الإسلام والتنسك والعبادة حتى إذا صرف الأبصار إليه وثنى قلوب العوام عليه شرع ينفث سمومه ويفرق صفوف المسلمين وينشر بينهم البدع والضلالات، فانتهى الحال بفتنته إلى قتل عثمان

وإحداث الفتنة بين المسلمين[٢٩].

الصنف الثاني: منافقون مذبذبين:

وهم من ركبوا مطية النفاق لوجود الريب والشك الذي لا يثبتهم على طريقة، فهم يميلون مع من كانت الغلبة له، فإن كانت مع أهل الإسلام قالوا ألم نكن معكم، وإن كانت مع أهل الكفر قالوا لهم مثل ذلك. وهؤلاء وإن كانوا كسابقيهم في الحكم وحقيقة الحال بإظهار الإسلام وإبطان الكفر إلا أن دافعهم ليس كدافع من قبلهم بل هو الشك الذي يبقيهم في حيرة وتردد بين الفريقين، ومن الآيات التي وردت في هذا الصنف:

١- قال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣]، فأخبر تعالى أن من صفاتهم الكسل عند القيام بالتكاليف الشرعية، وأشار لذلك بذكر أهمها وهي الصلاة؛ لأنهم لا يفعلونها تعبد ا لله، وإنما يدفعهم لفعلها مراءاة أهل الإيمان؛ ولذا فهم لا يذكرون الله تعالى إلا قليلاً، وهم متحيرين مترددين بين أهل الإيمان وأهل الكفر فهم ليسوا من هؤلاء ولا من هؤلاء، قال ابن كثير رحمه الله: (يَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ مُحَيَّرِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بَلْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَوَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الشَّكُّ، فَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ، وَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى أُولَئِكَ)[٣٠].

وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله: (أَيْ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ طَرَفَيْنِ، الْمُسْلِمِينَ وَالْكَافِرِينَ، وَالمراد الِانْتِمَاءُ وَالِانْتِسَابُ، فقد أَضَاعُوا النِّسْبَتَيْنِ فَلَا هم مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا مِنَ الْكَافِرِينَ. وَهُمْ فِي التَّحْقِيقِ إِلَى الْكَافِرِينَ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ، كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النِّسَاء:١٣٩]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النِّسَاء:١٤١]، فَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ أَضَاعُوا الْإِيمَانَ وَالِانْتِمَاءَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَضَاعُوا الْكُفْرَ بِمُفَارَقَةِ نُصْرَةِ أَهْلِهِ، أَيْ كَانُوا بِحَالَةِ اضْطِرَابٍ وَهُوَ مَعْنَى التَّذَبْذُبِ)[٣١].

قال ابن القيم رحمه الله: (قال تعالى في المنافقين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُم لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقين:٣]، وقال تعالى فيهم: {صُم بُكْمٌ عُمِي فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٨]، وقال تعالى في الكفار: ﴿صُم بُكْم عُمْى فَهُمْ لا يرْجَعُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر ثم عمى وعرف ثم تجاهل وأقر ثم أنكر وآمن ثم كفر، ومن كان هكذا كان أشد كفراً وأخبث قلباً وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل.

وفيه معنى آخر أيضاً: وهو أن الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطائفتين فيرضوا المؤمنين ليعزوهم، ويرضوا الكفار ليعزوهم أيضاً، ومن هاهنا دخل عليهم البلاءُ، فإنهم أرادوا العزتين من الطائفتين، ولم يكن لهم غرض في الإيمان والإسلام ولا طاعة الله ورسوله، بل كان ميلهم وضعوهم وجهتهم إلى الكفار، فقوبلوا على ذلك بأعظم الذل وهو أن جعل مستقرهم في أسفل السافلين تحت الكفار)(٣٢).

الصنف الثالث: منافقون ارتدوا بعد إسلامهم:

وهم أفراد ممن لم يرسخ الإيمان في قلوبهم، أسلموا ثم نكلوا عن الإسلام ونافقوا، والعياذ بالله. وقد ورد في القرآن ما يدل على هذا الصنف من المنافقين.

ومن الآيات التي وردت فيهم:

١- في فواتح سورة العنكبوت ذكر الله تعالى أقسام الناس فبدأ بالمؤمنين ثم المنافقين ثم الكافرين، وبين تعالى أن منهم من لم ترسخ قدمه في الإسلام، وأنه لأول عارض من فتنة تزل به قدمه في هاوية الكفر والنفاق والعياذ بالله، فيصانع أهل الإيمان بأول حاله من الدخول في الإسلام، وهو في حقيقة الحال على ما استقر عليه أمره من الارتداد بسبب عدم تحمله للبلاء في ذات الله، لكنه يستتر بثوب النفاق، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ * وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠، ١١]، قال الضحاك رحمه الله: نزلت في ناس من المنافقين بمكة كانوا يؤمنون، فإذا أوذوا وأصابهم بلاء من المشركين، رجعوا إلى الكفر مخافة من يؤذيهم، وجعلوا أذى الناس في الدنيا كعذاب

الله[٣٣]، وقال ابن زيد رحمه الله: هو المنافق إذا أوذي في الله رجع عن الدين وكفر، وجعل فتنة الناس كعذاب الله[٣٤].

قال الطبري رحمه الله: (ومن الناس من يقول: أقررنا بالله فوحَّدناه، فإذَا آذاه المشركون في إقراره بالله، جعل فتنة الناس إياه في الدنيا، كعذاب الله في الآخرة، فارتدّ عن إيمانه بالله، راجعا على الكفر به ﴿وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا محمد أهل الإيمان به ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ هؤلاء المرتدّون عن إيمانهم، الجاعلون فتنة الناس كعذاب الله {إِنَّا كُنَّا} أيها المؤمنون ﴿مَعَكُمْ﴾ ننصركم على أعدائكم، كذبا وإفكا، يقول الله: ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ﴾ أيها القوم من كلّ أحد ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ جميع خلقه، القائلين آمنا بالله وغيرهم، فإذا أُوذِي في الله ارتد عن دين الله، فكيف يخادع من كان لا يخفى عليه خافية، ولا يستتر عنه سرا ولا علانية)[٣٥].

وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله: (هَذَا فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا بِمَكَّةَ، كَانَ حَالُهُمْ فِي عَلَاقَاتِهِمْ مَعَ الْمُشْرِكِينَ حَالَ مَنْ لَا يَصْبِرُ عَلَى الْأَذَى، فَإِذَا لَحِقَهُمْ أَذًى رَجَعُوا إِلَى الشِّرْكِ بِقُلُوبِهِمْ وَكَتَمُوا ذَلِكَ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانُوا مُنَافِقِينَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ... فَهَؤُلَاءِ اسْتَنْزَلَهُمُ الشَّيْطَانُ فَعَادُوا إِلَى الْكُفْرِ بِقُلُوبِهِمْ لِضَعْفِ إِيمَانِهِمْ، وَكَانَ مَا لَحِقَهُمْ مِنَ الْأَذَى سَبَبًا لِارْتِدَادِهِمْ، وَلَكِنَّهُمْ جَعَلُوا يُظْهِرُونَ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّهُمْ مَعَهم، وَلَعَلَّ هَذَا التَّظَاهُرَ كَانَ بِتَمَالُؤٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُشْرِكِينَ فَرَضُوا مِنْهُمْ بِأَنْ يَخْتَلِطُوا بِالْمُسْلِمِينَ لِيَأْتُوا الْمُشْرِكِينَ بِأَخْبَارِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَعَدَّهُمُ اللَّهُ مُنَافِقِينَ وَتَوَعَّدَهُمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ)[٣٦].

٢- في سورة المنافقين ذكر الله تعالى جملة من صفات أهل النفاق، فذكر تعالى أنهم يظهرون لنبيه ﷺ الإيمان، مع تبطن قلوبهم الكفر به والتكذيب له؛ ولذا شهد الله عليهم بالكذب فيما ادعوا، ثم ذكر تعالى أنهم يتخفون عن حقيقة حالهم بما يجهدون فيه من بذل الإيمان الكاذبة بإيمانهم، ليصلوا بذلك إلى الأمن على حالهم، فيصدوا عن سبيل الله تعالى، ثم ذكر الله تعالى صفة أخرى لهم، وهي أنهم يظهرون ما لا يبطنون، فيظهرون الإيمان للمؤمنين ويبطنون الكفر في حقيقة الحال، وهو مشتمل

على حالتين للمنافقين، سواء منهم من كان على الكفر في كل حال أو من كان منهم آمن ثم كفر ونافق والعياذ بالله، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ١-٣]، قال الطبري رحمه الله: (يقول تعالى ذكره: إنهم ساء ما كانوا يعملون هؤلاء المنافقون الذين اتخذوا أيمانهم جُنة من أجل أنهم صدّقوا الله ورسوله، ثم كفروا بشكهم في ذلك وتكذيبهم به)(٣٧).

وقال ابن عطية رحمه الله: (المعنى: ساء عملهم أن كفروا بعد إيمانهم، وقوله تعالى: {آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا} إما أن يريد به منهم من كان آمن ثم نافق بعد صحة من إيمانه، وقد كان هذا موجوداً، وإما أن يريدهم كلهم، فالمعنى: ذلك أنهم أظهروا الإيمان ثم كفروا في باطن أمرهم، فسمى ذلك الإظهار إيماناً)(٣٨).

وقال ابن كثير رحمه الله: (إنما قُدّر عليهم النِّفَاقُ لِرُجُوعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرَانِ، وَاسْتِبْدَالِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى)(٣٩).

وقال الشنقيطي رحمه الله: (فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَصٌّ عَلَى أَنَّ الطَّبْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ نَتِيجَةٌ لِكُفْرِهِمْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾. وَكَقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾)(٤٠).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ذَمَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ دَخَلُوا فِي الْإِيمَانِ ثُمَّ خَرَجُوا مِنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ -إِلَى قَوْلِهِ- ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾، وَقَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾ -إِلَى قَوْلِهِ- ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾، فَقَدْ أَمَرَهُ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ: قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ.

وَقَوْلُ مَنْ يَقُولُ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الْآيَاتِ: إِنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ بِلِسَانِهِمْ مَعَ

كُفْرِهِمْ أَوَّلًا بِقُلُوبِهِمْ لَا يَصِحُّ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللِّسَانِ مَعَ كُفْرِ الْقَلْبِ قَدْ قَارَنَهُ الْكُفْرُ فَلَا يُقَالُ: قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا كَافِرِينَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ.

وَإِنْ أُرِيدَ أَنَّكُمْ أَظْهَرْتُمْ الْكُفْرَ بَعْدَ إظْهَارِكُمْ الْإِيمَانَ فَهُمْ لَمْ يُظْهِرُوا لِلنَّاسِ إلَّا لِخَوَاصِّهِمْ وَهُمْ مَعَ خَوَاصِّهِمْ مَا زَالُوا هَكَذَا؛ بَلْ لَمَّا نَافَقُوا وَحَذِرُوا أَنْ تَنْزِلَ سُورَةٌ تُبَيِّنُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ النِّفَاقِ وَتَكَلَّمُوا بِالِاسْتِهْزَاءِ صَارُوا كَافِرِينَ بَعْدَ إيمَانِهِمْ)[٤١].

وقال رحمه الله بعد أن ذكر جملة من الأدلة التي تدل على أنه وقع من المشاهد ما تسبب في تحول قوم من الإيمان إلى النفاق، وأن السبب في ذلك هو ضعف إيمانهم وعدم رسوخه في قلوبهم: (فَأُولَئِكَ كَانُوا مُسْلِمِينَ، وَكَانَ مَعَهُمْ إيمَانٌ هُوَ الضَّوْءُ الَّذِي ضَرَبَ اللَّهُ بِهِ الْمَثَلَ، فَلَوْ مَاتُوا قَبْلَ الْمِحْنَةِ وَالنِّفَاقِ مَاتُوا عَلَى هَذَا الْإِسْلَامِ الَّذِي يُثَابُونَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَكُونُوا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا الَّذِينَ اُمْتُحِنُوا فَثَبَتُوا عَلَى الْإِيمَانِ، وَلَا مِنْ الْمُنَافِقِينَ حَقًّا الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَنْ الْإِيمَانِ بِالْمِحْنَةِ، وَهَذَا حَالُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ فِي زَمَانِنَا أَوْ أَكْثَرِهِمْ إذَا اُبْتُلُوا بِالْمِحَنِ الَّتِي يَتَضَعْضَعُ فِيهَا أَهْلُ الْإِيمَانِ يَنْقُصُ إيمَانُهُمْ كَثِيرًا وَيُنَافِقُ أَكْثَرُهُمْ أَوْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُظْهِرُ الرِّدَّةَ إذَا كَانَ الْعَدُوُّ غَالِبًا؛ وَقَدْ رَأَيْنَا وَرَأَى غَيْرُنَا مِنْ هَذَا مَا فِيهِ عِبْرَةٌ. وَإِذَا كَانَتْ الْعَافِيَةُ أَوْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى عَدُوِّهِمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ. وَهُمْ مُؤْمِنُونَ بِالرَّسُولِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا لَكِنْ إيمَانًا لَا يَثْبُتُ عَلَى الْمِحْنَةِ. وَلِهَذَا يَكْثُرُ فِي هَؤُلَاءِ تَرْكُ الْفَرَائِضِ وَانْتِهَاكُ الْمَحَارِمِ. وَهَؤُلَاءِ مِنْ الَّذِينَ قَالُوا: ﴿آمَنَّا﴾ فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أَيْ الْإِيمَانُ الْمُطْلَقُ الَّذِي أَهْلُهُ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْإِيمَانُ إذَا أُطْلِقَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، فَلَمْ يَحْصُلْ لَهُمْ رَيْبٌ عِنْدَ الْمِحَنِ الَّتِي تُقَلْقِلُ الْإِيمَانَ فِي الْقُلُوبِ... وَكَثِيرًا مَا تَعْرِضُ لِلْمُؤْمِنِ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ النِّفَاقِ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ يَرِدُ عَلَى قَلْبِهِ بَعْضُ مَا يُوجِبُ النِّفَاقَ، وَيَدْفَعُهُ اللَّهُ عَنْهُ. وَالْمُؤْمِنُ يُبْتَلَى بِوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَبِوَسَاوِسِ الْكُفْرِ الَّتِي يَضِيقُ بِهَا صَدْرُهُ... فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجِيبُهَا فَيَصِيرُ

كَافِرًا أَوْ مُنَافِقًا؛ وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ غَمَرَ قَلْبَهُ الشَّهَوَاتُ وَالذُّنُوبُ فَلَا يُحِسُّ بِهَا إِلَّا إِذَا طَلَبَ الدِّينَ فَإِمَّا أَنْ يَصِيرَ مُؤْمِنًا وَإِمَّا أَنْ يَصِيرَ مُنَافِقًا)[٤٢].

المبحث الثالث
سمات خطاب القرآن للمنافقين

السمات جمع سمة، والسمة في اللغة العلامة والأمارة [٤٣]، والمقصود بها في بحثنا: الأمارات والعلامات التي تميز بها السياق القرآني للمنافقين، وهي تتضح للمتأمل في كلام الله تعالى، وتعتمد على إمعان النظر وكد الذهن، وقد ظهر لي منها ما يلي:

أولاً: التأكيد على استمرار هذا المرض في الأمة:

بدأ الإسلام في مكة، إذ أوحي إلى النبي ﷺ بها، وأمر ﷺ بالدعوة فيمن حوله فآمن به من آمن، لكن كان المستجيبون للدعوة الجديدة في مكة أفراداً أفراداً، فلم يكن في مكة حينئذ نفاق؛ لأن أهل الإسلام كانوا في قلة واستضعاف، فلا داعي للتخفي بالكفر بل الحال على العكس من ذلك لأن الكفر حينئذ له الصولة والجولة، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وظهرت لأهل الإسلام شوكة وبدأت لهم دولة بدأت رحلة النفاق والمنافقين في أمة الإسلام، فهي ظاهرة تعتمد مداً وجزرا على قوة الإسلام وظهوره، فكلما قوي وظهر ظهر النفاق، وإذا ضعف أهله تراجع مده، وظهر أهل النفاق حينئذ بثوب الكفر الصراح، ولم يحتاجوا للتخفي والنفاق.

والمتأمل في سياقات الخطاب القرآني للمنافقين يلحظ بجلاء الإشارة إلى استمرار هذا الداء في أمة الإسلام على مر عصوره وتعاقب دهوره باستخدام الفعل المضارع في عرض صفات المنافقين وأقوالهم، واستعمال المضارع يفيد التجدد والحدوث[٤٤]، فمع أن الآيات نزلت لمعالجة ظاهرة واقعة وقت التنزل، وحكاية أقوال والدلالة على صفات وقعت وحصلت فكان الأصل أن يأتي فيها السياق بصيغة الماضي إلا أنها جاءت بصيغة المضارع إشارة لاستمرار هذا الداء وتكرر تلك المقولات وتجدد تلك الصفات على مر زمان الأمة، فالقرآن كتاب هداية للأمة إلى أن تقوم الساعة .

ومن ذلك على سبيل المثال:

– قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٨]، وفي سورة العنكبوت قال تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٠]، فذكر الله تعالى الفعل المضارع (يقول) في ادعاء المنافقين للإيمان، ومجيئه بالمضارع دال على تجدد وحدوث هذه المقولة بظهور ظاهرة النفاق في الأمة من مدعي الإيمان كذباً وزوراً، وكذلك مجيئه بعد لفظ (الناس) الدال على الجنس ليشمل كل من ظهر منه ذلك في كل عصر أو مصر، فلم يقل تعالى (منكم) لتكون خاصة بمعاصري تنزل الوحي، بل وردت بصيغ تدل على استمرار ذلك وتجدده[٤٥].

ثم قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٩]، فذكر الله تعالى صفة من صفات المنافقين، وهي مخادعتهم أهل الإيمان والسبب الحامل لهم على سوء صنيعهم وضلال اعتقادهم وهو فقدهم حقيقة الشعور النافع المفيد الذي يوصل العاقل إلى صحة المسار، إذ خداعهم هو في الحقيقة لأنفسهم بإيرادها موارد الهلكة والضلال، فذكر الله تعالى الصفة والسبب بصيغة المضارع ﴿يخادعون﴾ ﴿يخدعون﴾ ﴿يشعرون﴾، للدلالة على تجدد ذلك منهم واستمراره، وذلك شامل معاصري تنزل الوحي بعد نزول هذه الآيات أو من جاء بعدهم من أهل النفاق إلى أن تقوم الساعة[٤٦].

– ومنها ما ورد في سورة المائدة من مسارعة المنافقين في الكافرين، وموالاتهم بصور من الموالاة مختلفة، وهي صفة من صفات المنافقين تتجدد بتجدد منافقي كل زمان. ومع اختلاف مزاعمهم في كل زمان إلا أن الجامع لمزاعمهم ما ذكر الله تعالى في كتابه من خوفهم من دوائر الزمان بتغلب الكافرين على المؤمنين، قال تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾(المائدة: ٥٢)،

فذكر الله تعالى صفتهم بصيغة المضارع ﴿يسارعون﴾ ﴿يقولون﴾، للدلالة على تجدد هذا الفعل منهم واستمراره، قال ابن كثير رحمه الله: نهَى الله تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ مُوَالَاةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، الَّذِينَ هُمْ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضَهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، ثُمَّ تَهَدَّدَ وَتَوَعَّدَ مَنْ يَتَعَاطَى ذَلِكَ بقوله: {وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ}، ثم قال تعالى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ} شَكٌّ وَرَيْبٌ وَنِفَاقٌ يُبَادِرُونَ إِلَى مُوَالَاتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، يَتَأَوَّلُونَ فِي ذلك أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الْكُفَّارِ بِالْمُسْلِمِينَ، فَتَكُونُ لَهُمْ أَيَادٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ(٤٧).

ومن الآيات التي تضمنت أقوالًا وصفاتًا للمنافقين وردت بصيغة المضارع:

- ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٤، ٢٠٥].

- ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠].

- ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٧].

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠].

- ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:٦١، ٦٢].

- ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٢، ٧٣].

- ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ

مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:٨١].

- ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء:١٠٧، ١٠٨].

- ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٨، ١٣٩].

- ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٤١].

- ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

- ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٩].

- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة:٥٦، ٥٧](٤٨).

ثانياً: ورود آيات المنافقين في سياق الغيبة لا الحضور:

القرآن الكريم خطاب الله تعالى لعباده، فهو يخاطبهم تبارك وتعالى على اختلاف مواقعهم من الإيمان قربًا وبعدًا، إلا أن الملاحَظ أن خطابه لكل صنف من الناس يناسب حالهم، فخطابه للمؤمنين يختلف عن خطابه للكافرين والمنافقين. وكما يلحظ المتأمل تنبيه القرآن على استمرار داء النفاق في الأمة بعرض صفات المنافقين وحكاية أقوالهم بصيغة تدل على التجدد والحدوث، كذلك يلحظ بأن القرآن الكريم تعامل مع النفس المنافقة في توجيه خطاباته على التعريض بها دون مباشرة في توجيه الخطاب إليها، مقابلة لها بجنس عملها، فكما أن المنافق يتخفى بنفاقه ولا يكشف أوراقه بخبث طويته ليغيب في داخل الصف المؤمن يأتي القرآن مسايرًا له في منهجه بمخاطبته بخطاب الغائب، تعريضًا بفساد عقيدته وتصوره في حق الله تعالى، حين

ظن أن فساد باطنه يخفى على الله تعالى، فيوقفه على أن أمره لا يخفى على رب العزة والجلال العالم بمخبآت الضمائر والنفوس، وأنه لخبث عقيدته وسوء طويته لا يستحق أن يوجه له الخطاب مباشرةً؛ لأن مخاطبته بخطاب الحاضر من رب العزة تعالى نوع من التكريم لا يستحقه.

ومن الآيات التي وردت بذلك على سبيل المثال:

– المقطع الأول في المنافقين، وهو الذي اشتملت عليه سورة البقرة، فقد جاء الخطاب معهم على سبيل الغيبة لا الحضور، فقال تعالى: ﴿ومن الناس من يقول﴾ ولم يقل: ومنكم أو تقولوا على الصيغة للمخاطب، ثم في آخر الآية لما سجل عليهم عدم الإيمان وهو حقيقة حالهم قال: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ على صيغة الغائب باستعمال ضمير الغائب (هم)، ولم يرد بصيغة المخاطب: وما أنتم بمؤمنين.

وهذا الأسلوب هو الذي دار عليه المقطع من أوله إلى آخره: ﴿يخادعون﴾ ﴿وما يخدعون﴾ ﴿وما يشعرون﴾ بالغيبة، ولم يرد: تخادعون، وما تخدعون، وما تشعرون، بصيغة المخاطب، ومثله الآية التي تليها: ﴿في قلوبهم﴾ ﴿فزادهم الله﴾ ﴿ولهم عذاب﴾ ﴿بما كانوا يكذبون﴾، ولم يرد بصيغة المخاطب: في قلوبكم، فزادكم الله، ولكم عذاب، بما كنتم تكذبون.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا

يُبْصِرُونَ﴾ (البقرة:٨- ١٧).

– وفي سورة البقرة كذلك يأتي الخطاب للنبي ﷺ معرضاً بصنيع المنافقين في السعي بالإفساد في الأرض وإهلاك الحرث والنسل، ولم يرد بمخاطبة من كان هذا حاله مباشرة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤- ٢٠٦]، وهم المنافقون، فيأتي ابتداءً بقوله تعالى: ﴿ومن الناس﴾، ثم مخاطبة النبي ﷺ بشأنهم في قوله: ﴿يعجبك قوله﴾ ﴿يشهد الله﴾ ﴿وهو ألد﴾، ثم قوله تعالى: ﴿تولى﴾ ﴿سعى﴾ ﴿ليفسد فيها﴾ ﴿ويهلك﴾، ثم بقوله تعالى: ﴿قيل له﴾ ﴿أخذته العزة﴾ ﴿فحسبه﴾، فجاءت الصيغ في كل ذلك بالغيبة للمنافقين في خطاب للنبي ﷺ بحقيقة حالهم، ولم يخاطب أهل النفاق مباشرةً.

– في سورة آل عمرآن لما ذكر الله تعالى أحداث غزوة أحدٍ وما حصل فيها من رجوع رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول بثلث جيش المسلمين[٤٩]، تنزل آيات القرآن مسجلةً هذا الحدث المهم الذي كان سببًا في نكسة أهل الإيمان، فاضحةً أهل النفاق بسوء صنيعهم، معرضةً بهم في قبيح فعلهم، فتأتي الآيات في سياق الغيبة لهم لا الحضور، يقول الله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمرآن:١٦٧، ١٦٨]، فقال تعالى: ﴿وقيل لهم﴾ ﴿قالوا لو نعلم﴾﴿هم للكفر﴾ ﴿أقرب منهم﴾ ﴿يقولون بأفواههم﴾ ﴿في قلوبهم﴾ ﴿بما يكتمون﴾، كلها في ثوب الغائب واستعمال ضمير الغائب في أكثرها، ولم ترد في سياق المخاطب: وقيل لكم، قلتم لو نعلم، أنتم للكفر، أقرب منكم، تقولون بأفواهكم، في قلوبكم، بما تكتمون.

ثم في الآية التي تليها كذلك تأتي على نفس الطريقة للغائب: (الذين قالوا

لإخوانهم وقعدوا)، ولم ترد مخاطبة لهم مباشرة، فتأتي على سبيل المثال بصيغة: إذ قلتم لإخوانكم وقعدتم لو....

ومن الآيات التي وردت بهذه الصيغة:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٠- ٦٨].

- ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة:٥٢][٥٠].

ثالثاً: الاهتمام بتسجيل المواقف والعناية بإبراز الصفات من غير تعرض للأشخاص:

القرآن الكريم كتاب هداية، ودستور أمة، سيتطاول زمانها إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها. فأمة الإسلام لا تزال تنهل من معينه الصافي، وتجد في إرشاداته وتوجيهاته ما يهديها، ويحل لها مشكلاتها ومعضلاتها، ويحدد لها طريقة تعاملها مع ما حولها من أشخاص وأفعال. والقرآن الكريم قد بني على تحقيق هذا الأصل العظيم فهو قديم جديد، نزل قبل أكثر من ألف وأربع مائة سنة إلا أنه صالح لكل زمان ومكان. ومن جملة ما يؤكد ذلك وله ارتباط بالسمة الأولى في أن داء النفاق سيبقى في الأمة وستتجدد مشاهده أن سياقات الخطاب القرآني للمنافقين

أعرضت عن تسمية الأشخاص الذين ظهر منهم ذلك قولًا أو فعلًا، مع أن تلك الأقوال والأفعال وقعت من أناس معروفين وقت تنزل الوحي، وورد في الآثار تسميتهم بأسمائهم، إلا أن القرآن أهتم بتسجيل المواقف وعرض الصفات من غير تعرض للأشخاص، ولن يجد المتأمل في آياته آية واحدة سمت أحدًا منهم، وذلك يرجع إلى فوائد منها:

١- اهتمام القرآن بتسجيل المواقف وعرض الصفات مع الإعراض عن الأشخاص يبقي تلك المواقف والصفات مرشدًا للأمة وكاشفًا لها عن المنافقين في كل عصر ومصر؛ لأن النص على الأشخاص في تسجيل المواقف والصفات ربما يعطي انطباعًا لدى البعض بربط تلك المواقف والصفات بأولئك الأشخاص فقط.

٢- عدم ذكر أشخاص المنافقين في تسجيل المواقف والصفات فيه إهمال لهم، لعدم استحقاقهم الذكر، تحقيرًا لشأنهم وحطًا من قدرهم؛ إذ لو استحقت مواقفهم ذكرهم لذكروا.

٣- عدم النص على أسمائهم فيه دعوة لهم للتوبة وتصحيح المسار بينهم وبين الله تعالى، وهو إمهال من الله تعالى لهم لعل منهم من يصحح إيمانه ويصلح عمله؛ فالقرآن لو نص على أشخاصهم لكان في ذلك تيئيس لهم من التوبة.

فالقرآن اهتم واعتنى بتسجيل مواقف وصفات المنافقين وأعرض عن أشخاصهم، ومن ذلك على سبيل المثال:

– في سورة البقرة ذكر الله تعالى جملة من صفات المنافقين، وهي:

أنهم إذا أظهروا للناس الإسلام مع اشتمال بواطنهم على الكفر يحلفون لهم ويشهدون الله: أن الذي في قلوبهم موافق لألسنتهم.

أنهم في حال خصومتهم يكذبون ويتناءون عن الحق ولا يستقيمون معه بل يفترون ويفجرون.

أنهم إذا سعوا في الأرض سعوا فيها بالفساد والإفساد، فليس لهم همة إلا في إفساد أديان الناس وأخلاقهم، وبه يكون فساد الحرث والنسل، مع فساد حالهم.

أنهم إذا وعظوا وذكروا أو كوشفوا وفضحوا بسوء مقالهم وفعالهم، وقيل لهم: اتقوا الله، وانزعوا عن سوء حالكم وفسادكم وارجعوا إلى الحق امتنعوا وأبوا، وأخذتهم الحمية والغضب بسبب ما اشتملوا عليه من الآثام(٥١).

قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة:٢٠٤- ٢٠٦]، فمع كون هذه الآيات نزلت في شخص معروف إلا أنها أعرضت عن شخصه واهتمت بإبراز صفاته لتكون باقية أبد الدهر في توصيف حال المنافقين في كل زمان ومكان.

روى الطبري في تفسيره بإسناده عن السدي قال: نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي -وهو حليفٌ لبني زُهره- وأقبل إلى النبيّ ﷺ بالمدينة، فأظهر له الإسلام، فأعجبَ النبيّ ﷺ ذلك منه، وقال: إنما جئت أريد الإسلام، والله يعلم أنّي صادق! ثم خرج من عند النبي ﷺ فمرَّ بزرع لقوم من المسلمين وحُمر، فأحرق الزرع، وعقر الحُمُرُ، فأنزل الله عز وجل: {وإذا تولى سعَى في الأرض ليُفسد فيها ويُهلك الحرْثَ والنسل}(٥٢).

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره بإسناده عَنِ السُّدِّيِّ أيضًا قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، نَزَلَتْ فِي الأَخْنَسِ بْنِ شَرِيقٍ الثَّقَفِيِّ، وَهُوَ حَلِيفٌ لِبَنِي زُهْرَةَ(٥٣).

فهذا الأثر يسمي صاحب المقالة والصفات التي تضمنتها الآية من المنافقين، وقد ذكره أهل التفسير في كتبهم عند تفسير الآية، وذكروا قولاً آخر مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في أنها نزلت في قصة أصحاب الرجيع ومقالة رجل من المنافقين من غير أن يسمى إلا أن في الرواية مولى زيد بن ثابت وهو مجهول، وعلى فرض صحة الرواية فإن عدم تسمية صاحب المقالة من المنافقين لا ينقض ما قررنا لأنه كان معلوماً لدى الصحابة ﷺ.

وروى الطبري في تفسيره عن سعيد بن جبير أو عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما أصيبت هذه السرية أصحاب خُبَيْب بالرجيع بين مكة والمدينة، فقال رجال من المنافقين: يا ويح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا! لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا هم أدَّوْا رسالة صاحبهم! فأنزل الله عز وجلّ في ذلك من قول المنافقين، وما أصاب أولئك النفر في الشهادة والخير من الله(٥٤).

– في سورة المنافقين ذكر الله تعالى موقفاً من مواقف المنافقين التي تكشف عن عظيم ما تضمره قلوبهم من حنق وكره لأهل الإسلام، لا يملكوا أن يستمروا على إخفائه، بل لابد وأن يظهر على فلتات ألسنتهم أو سوء تصرفاتهم. وقد سجل القرآن الكريم في سورة المنافقين لهم ذلك الموقف من غير أن يسمي القائل، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون:٨)، فقائل هذه المقالة رأس المنافقين في زمانه، وهو عبد الله بن أبي بن سلول، ومع هذا لم يصرح باسمه وإنما اهتم القرآن الكريم بتسجيل موقفه والرد عليه، فعن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: "كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمَّعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ قَالَ: "مَا هَذَا؟" فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ"، قَالَ جَابِرٌ: وَكَانَتِ الأَنْصَارُ حِينَ قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرَ، ثُمَّ كَثُرَ المُهَاجِرُونَ بَعْدُ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ: أَوَقَدْ فَعَلُوا، وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: دَعْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "دَعْهُ لاَ يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ"(٥٥)، فقائل المقالة معروف شخصه، إلا أن القرآن الكريم أهتم بتسجيل موقفه من غير تسمية له.

– في سورة الحشر ذكر الله تعالى حادثة بني النضير، وهم حي من أحياء يهود الذين كانوا يسكنون المدينة، وعقد معهم النبي ﷺ عهداً وحلفاً أول وصوله المدينة، إلا أنهم

ما فتئوا يسعون للوقيعة بالنبي صلى الله عليهم وسلم وأهل الإيمان، فلما أتاهم النبي ﷺ وبعض أصحابه ليعينوه على دية الرجلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري ﷺ في زمان الصلح مع قريش، هموا بقتل رسول صلى الله عليهم وسلم بإلقاء صخرة عليه، فعزم النبي ﷺ على تأديبهم(٥٦)، فحصل من بعض المنافقين في المدينة تواصل مع يهود بني النضير وتأليب لهم على النبي ﷺ وأهل الإيمان وأعطوهم الأيمان إن قوتلوا لينصرونهم وإن أخرجوا ليخرجون معهم، فأنزل الله تعالى في كتابه الكريم آيات تسجل على أهل النفاق أنهم مع الكافرين ضد المؤمنين، ولم تتعرض الآيات لأسمائهم لتبقى هذه صفة لهم في كل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾[الحشر:١١، ١٢]، فاعتنت الآيات بالفعل من غير تعرض للأشخاص، مع كون من وقع منه ذلك معروف، ورد في الآثار تسميته. قال الطبري رحمه الله في تفسير الآية: (وهم فيما ذُكر عبد الله بن أُبي بن سلول، ووديعة ومالك، ابنا نوفل، وسُوَيد وداعس، بَعَثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله ﷺ للحرب أن اثبتُوا وتمنَّعوا، فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن خرجتم خرجنا معكم، فتربصوا لذلك من نصرهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم، ويكفّ عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة)، ثم ساق بإسناده ما استند عليه من آثار، ومنها: ما روى عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾، قال: عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ورفاعة أو رافعة بن تابوت. وقال الحارث: رفاعة بن تابوت، ولم يشكّ فيه، وعبد الله بن نَبْتل، وأوس بن قَيْظِيّ(٥٧).

رابعاً: الربط بين ادعاء المنافقين للإيمان وبين خبيئة عقيدتهم الفاسدة وبين ظاهر حالهم:

المنافق خبيث الباطن فاسد العقيدة، ظاهره الصلاح والإصلاح وواقع حاله الفساد والإفساد؛ ولذا اهتم القرآن الكريم في سياق آياته في المنافقين بتقرير هذه

الحقيقة فجعل مآلات أفعال المنافقين وتصرفاتهم بالفساد دليلاً وبرهاناً على خبث طويتهم وسوء قصدهم وفساد عقيدتهم وبالتالي كذب دعواهم في الإيمان، وذلك ظاهر للمتأمل في ربط القرآن الكريم بين دعواهم الإيمان وكفر باطنهم وظهور الفساد بأفعالهم، فهم مع كونهم يدعون الإيمان والنصح للمسلمين، إلا أن الواقع يكذب دعواهم بمواقف وتصرفات لا تخدم الإسلام والمسلمين بل هي على العكس تماما تصب في خانة الإساءة للإسلام والمسلمين وخدمة أعدائهم، وذلك كله دليل ظاهر على فساد بواطنهم بالكفر والعياذ بالله وإن أخفوه.

والقرآن الكريم حين يستخدم هذا الأسلوب يضيء لأمة الإسلام نبراسًا تستطيع من خلاله اكتشاف داء النفاق الذي سيتطاول زمانه بتطاول زمانها، بفضح أهله والاستدلال عليهم حتى يفطن لهم أهل الحق ويحذروهم.

ومن الآيات التي اهتمت بذلك:

– في سورة البقرة بدأ الله عز وجل ذكره للمنافقين بذكر دعواهم الإيمان فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٨)، فذكر تعالى الدعوى فكذبهم فيها، وسجل عليهم بعد ذلك فساد بواطنهم فقال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة:١٠)، ثم ذكر الله تعالى حقيقة تصرفاتهم وأفعالهم، والكاشف لمن حولهم عن كذب دعواهم وفساد بواطنهم وهو الفساد في ظاهرهم والسعي بالإفساد في الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:١١، ١٢).

قال السعدي رحمه الله: (يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله؛ لأن الإيمان الحقيقي، ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين، وأبان تعالى مرض قلوبهم، وهو مرض الشك والشبهات والنفاق، وأخبر أنه إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ فجمعوا

بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلبا للحقائق، وجمعا بين فعل الباطل واعتقاده حقا، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه)(٥٨).

- في سورة النساء ذكر الله تعالى المنافقين، فبدأ بتكذيب دعواهم الإيمان فوصفه بـ (زعم) في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، وهي كلمة أكثر ما تطلق في اللغة لمن قال باطلاً مما لا حقيقة له(٥٩)، إشارة إلى فساد بواطنهم بالكفر والعياذ بالله، ثم ذكر تعالى من فساد ظاهرهم الدال على سوء عقيدتهم وفسادها حرصهم على التحاكم إلى الأحكام الطاغوتية البشرية وإهمال التحاكم إلى شريعة الله تعالى في ذوات أنفسهم، فقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾(النساء:٦٠)، وسعيهم في إفساد غيرهم بصدهم عن شريعة الله تعالى، وذلك باستخدام المصدر ﴿صدوداً﴾، دلالة على المبالغة في ذلك، فصدودهم هم حاصل بالإشارة الأولى ويستفاد من الثانية مبالغتهم في ذلك بتمسكهم بموقفهم وصد غيرهم كما يدل عليه واقع حالهم في كل زمان، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (النساء:٦١)، لتدل على صدق ما ذكره الله تعالى من حكم عليهم بكذب دعواهم الإيمان؛ وليكون دليلاً لأهل الإيمان في الشاهد وعالم الواقع على نفاق المنافقين والعياذ بالله.

قال ابن عطية رحمه الله: (زعم) للأمر الذي تتقوى فيه شبه الإبطال، وكذلك زعم المنافقين أنهم مؤمنون؛ لسوء أفعالهم، وقد أمروا بالكفر بالطاغوت.

و ﴿رَأَيْتَ﴾ هي رؤية عين لمن صد من المنافقين مجاهرة وتصريحا، وهي رؤية قلب لمن صد منهم مكرا وتخابثا ومسارقة حتى لا يعلم ذلك منه إلا بالتأويل عليه والقرائن الصادرة عنه بفعله)(٦٠).

وقال سيد قطب رحمه الله: (الناس لا يؤمنون -ابتداء- إلا أن يتحاكموا إلى أحكام الرسول ﷺ في حياته، وبعده في مصدريه القرآن والسنة بالبداهة، ولا يكفي أن

يتحاكموا إليه- ليحسبوا مؤمنين- بل لا بد من أن يتلقوا حكمه مسلمين راضين، فالذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت-أي إلى غير شريعة الله- لا يقبل منهم زعمهم أنهم آمنوا بما أنزل إلى الرسول وما أنزل من قبله، فهو زعم كاذب، يكذبه أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، وذلك علامة النفاق أن يصدوا عن التحاكم إلى ما أنزل الله والتحاكم إلى رسول الله ﷺ)[٦١].

- في سورة النساء لما ذكر الله تعالى المنافقين ودعواهم طاعة رسول الله ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ [النساء:٨١]، ذكر بعد ذلك ما يدل على كذبهم وفساد عقيدتهم بتبييتهم ضد ذلك من ناحية، وتوجيههم من ناحية أخرى إلى التدبر في معجزة رسول الله ﷺ الدالة على صدق نبوته بما اشتملت عليه من وجوه الإعجاز؛ ليتحقق لهم ما تفقده قلوبهم من الإيمان بالله وبرسوله ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٨١، ٨٢)، ثم تسجل عليهم الآيات فساد ظاهرهم بأفعال تدل على فساد عقيدتهم، وهي سعيهم بنشر الأخبار الكاذبة والإرجاف في صفوف المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾، لتبقى هذه الصفات دليلاً على نفاق المنافقين والعياذ بالله.

قال ابن كثير رحمه الله: (يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْمُوَافَقَةَ وَالطَّاعَةَ، فإذا خَرَجُوا وَتَوَارَوْا عَنْكَ اسْتَسَرُّوا لَيْلًا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِغَيْرِ مَا أَظْهَرُوهُ، فَقَالَ تَعَالَى: {وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ} أَيْ: يَعْلَمُهُ وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ حَفَظَتَهُ الْكَاتِبِينَ، الَّذِينَ هُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْعِبَادِ. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا التَّهْدِيدِ، أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يُضْمِرُونَهُ وَيُسِرُّونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَمَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ لَيْلًا مِنْ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ وَعِصْيَانِهِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَالْمُوَافَقَةَ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ)[٦٢].

وقال الرازي: (حَكَى الله عَنِ الْمُنَافِقِينَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ نَوْعًا آخَرَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْفَاسِدَةِ، وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا جَاءَهُمُ الْخَبَرُ بِأَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ الْأَمْرُ مِنْ بَابِ

الْأَمْنِ أَوْ مِنْ بَابِ الْخَوْفِ أَذَاعُوهُ وَأَفْشُوهُ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ الضَّرَرِ مِنْ وُجُوهٍ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ هَذِهِ الْإِرْجَافَاتِ لَا تَنْفَكُّ عَنِ الْكَذِبِ الْكَثِيرِ.

الثَّانِي: أن الْخَبَرَ إن كان فِي جَانِبِ الْأَمْنِ زَادُوا فِيهِ زِيَادَاتٍ كَثِيرَةً، فَإِذَا لَمْ تُوجَدْ تِلْكَ الزِّيَادَاتُ أَوْرَثَ ذَلِكَ شُبْهَةً لِلضُّعَفَاءِ فِي صِدْقِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، لِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يَرْوُونَ تِلْكَ الْإِرْجَافَاتِ عَنِ الرَّسُولِ، وَإِنْ كَانَ فِي جَانِبِ الْخَوْفِ تُشَوِّشَ الْأَمْرُ بِسَبَبِهِ عَلَى ضُعَفَاءِ الْمُسْلِمِينَ، وَوَقَعُوا عِنْدَهُ فِي الْحَيْرَةِ وَالِاضْطِرَابِ، فَكَانَتْ فتنة مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ الْإِرْجَافَ سَبَبٌ لِتَوْفِيرِ الدَّوَاعِي عَلَى الْبَحْثِ الشَّدِيدِ وَالِاسْتِقْصَاءِ التَّامِّ، وَذَلِكَ سَبَبٌ لِظُهُورِ الْأَسْرَارِ، وَذَلِكَ مِمَّا لَا يُوَافِقُ مَصْلَحَةَ الْمَدِينَةِ.

الرَّابِعُ: أَنَّ الْعَدَاوَةَ الشَّدِيدَةَ كَانَتْ قَائِمَةً بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ الْكُفَّارِ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فِي إِعْدَادِ آلَاتِ الْحَرْبِ وَفِي انْتِهَازِ الْفُرْصَةِ فِيهِ، فَكُلُّ مَا كَانَ أَمْنًا لِأَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ كَانَ خَوْفًا لِلْفَرِيقِ الثَّانِي، فَإِنْ وَقَعَ خَبَرُ الْأَمْنِ لِلْمُسْلِمِينَ وَحُصُولُ الْعَسْكَرِ وَآلَاتِ الْحَرْبِ لَهُمْ أَرْجَفَ الْمُنَافِقُونَ بِذَلِكَ فَوَصَلَ الْخَبَرُ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ إِلَى الْكُفَّارِ، فَأَخَذُوا فِي التَّحَصُّنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَفِي الِاحْتِرَازِ عَنِ اسْتِيلَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ وَقَعَ خَبَرُ الْخَوْفِ لِلْمُسْلِمِينَ بَالَغُوا فِي ذَلِكَ، وَزَادُوا فِيهِ وَأَلْقَوُا الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الضَّعَفَةِ وَالْمَسَاكِينِ، فَظَهَرَ مِنْ هَذَا أَنَّ ذَلِكَ الْإِرْجَافَ كَانَ مَنْشَأً لِلْفِتَنِ وَالْآفَاتِ مِنْ كُلِّ الْوُجُوهِ، وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ذَمَّ اللَّه تِلْكَ الْإِذَاعَةَ وَذَلِكَ التَّشْهِيرَ، وَمَنَعَهُمْ مِنْهُ)[٦٣][٦٤].

الخامس: تأكيد القرآن على الفرق بين المنافقين وبين أهل الإيمان سواء في الأفعال أو نهاية الحال والمآل:

المنافق ظاهره مع المسلمين المؤمنين، يعيش بينهم وتجرى عليه أحكامهم، إلا أن حقيقة حاله فساد باطنه بالكفر والعناد الذي أضمره والعياذ بالله، فهو يلبس في الظاهر لبوس المؤمنين، وينتمي في الباطن للكافرين.

والإسلام قد ربى أفراده على التعامل مع الناس والحكم عليهم بظواهرهم؛ لأن البواطن أمر خفي لا يطلع عليه ولا يكشفه إلا الله تعالى الذي يعلم السر وأخفى، فعلى

الرغم من أن المنافقين المعاصرين لرسول الله ﷺ كان يظهر من سلوكهم قولاً وفعلاً ما ينبئ عن فساد عقيدتهم وفي وقت تنزل الوحي الذي ربما كشف لرسول الله ﷺ عن حقيقة بعضهم إلا أنه ﷺ حرص على عدم محاكمتهم بفساد بواطنهم رغم تيقنه به ليرسم لأمة الإسلام طريقها في التعامل مع الظواهر دون البواطن، وليحفظ حرمة الدين من أن تنال من بعض من يخفى عليه حقيقة حال المنافقين، وليقطع الطريق الذي ربما استغله أهل الكفر والنفاق بالقدح في الإسلام والصد عنه بالزعم أن محمدًا ﷺ يقتل أصحابه(٦٥)(٦٦).

فمع أن الإسلام علق حكم الدنيا بالظاهر، والمنافقون يعيشون بين المسلمين ويجدون في التفيء بظلاله مندوحة عن المعاجلة بالعقوبة على فساد بواطنهم وعقائدهم، ولربما سوى بعض من لا علم له بينهم وبين أهل الإيمان في حكم الشرع عليهم وعاقبة مآلهم في الآخرة، واعتقد أنهم مع المؤمنين في الآخرة، فسحب حكم الدنيا فيهم على الآخرة؛ لما يرى من عيشهم بين أهل الإسلام، اعتنى القرآن الكريم بالتأكيد على الفرق بينهم وبين المؤمنين في الأفعال فلفت انتباه العقلاء إلى فسادهم وسعيهم بالفساد، وبالتالي فلا يمكن أن يستووا مع المؤمنين، فحكم عليهم القرآن بالكفر فضمهم إلى أهله فيه وفي عاقبة حالهم ومآلهم في الآخرة، وجعل لهم من العقوبة فوق ما للكافرين بكونهم في الدرك الأسفل من النار والعياذ بالله، وأخلى ساحة أهل الإيمان منهم حكمًا وعاقبةً.

ومن الآيات التي اعتنت ببيان ذلك:

- في سورة النساء وبعد أن ذكر الله تعالى المنافقين فتوعدهم بالعذاب الأليم على طريقة التندر بهم إذ جاء بلفظ البشارة لهم بذلك، فقال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء:١٣٨)، وذلك بسبب موالاتهم الكافرين وقد نهوا عنها، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ (النساء:١٣٩)، ذكر الله تعالى صورة من صور موالاة الكافرين وهي موافقتهم ومجالستهم وقت نيلهم من الإسلام وتنقصه والقدح في أحكامه، وذلك دليل كاف على

رضى من جالسهم بذلك وموافقته عليه، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (النساء:١٤٠)، ثم قال تعالى في سياق دال على حكمه عليهم بالكفر في الدنيا وعاقبة كعاقبة الكافرين بالنار يوم القيامة: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (النساء:١٤٠)، فجمعهم معهم في المآل والعاقبة، ووصف الكافرين بالكفر الذي استوى المنافقون معهم فيه، اهتمامًا من القرآن بالتسوية بين المنافقين والكافرين في الحكم ونهاية الحال والمال.

قال الزمخشري: (المنزل عليهم في الكتاب: هو ما نزل عليهم بمكة من قوله: {وَإِذا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آياتِنا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}، وذلك أن المشركين كانوا يخوضون في ذكر القرآن في مجالسهم فيستهزئون به، فنهي المسلمون عن القعود معهم ما داموا خائضين فيه، وكان أحبار اليهود بالمدينة يفعلون نحو فعل المشركين، فنهوا أن يقعدوا معهم كما نهوا عن مجالسة المشركين بمكة. وكان الذين يقاعدون الخائضين في القرآن من الأحبار هم المنافقون، فقيل لهم إنكم إذاً مثل الأحبار في الكفر؛ لأنهم إذا لم ينكروا عليهم كانوا راضين، والراضي بالكفر كافر). ولم يحكم على المسلمين بمكة بالنفاق حين كانوا يجالسون الخائضين من المشركين لعجزهم عن الإنكار إذ كانوا مستضعفين، وهؤلاء لم ينكروا مع قدرتهم، فكان ترك الإنكار لرضاهم(٦٧).

– في سورة براءة لما ذكر الله تعالى المنافقين فجعل بعضهم من بعض في خلال النفاق وصفاته، والتي منها الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض اليد عن كل خير، فقال تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (براءة:٦٧)، وهذه الصفات التي وصف بها المنافقون في الآية هي صفات الكفار جاء الحكم عليهم صريحًا بالتسوية بينهم وبين الكافرين في الحكم بالكفر ونهاية الحال والمآل بالنار، فقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ

حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ (براءة:٦٨).

قال الرازي: (لَمَّا بَيَّنَ تعالى مِنْ قَبْلُ فِي المنافقين والمنافقات أنه نسيهم، أَكَّدَ هَذَا الْوَعِيدَ وَضَمَّ الْمُنَافِقِينَ إِلَى الْكُفَّارِ فِيهِ، فَقَالَ: وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها وَلَا شَكَّ أَنَّ النَّارَ الْمُخَلَّدَةَ مِنْ أَعْظَمِ الْعُقُوبَاتِ)(٦٨).

وقال السعدي رحمه الله: (جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة لله ورسوله، والكفر بآياته)(٦٩).

– في سورة براءة وكذلك في سورة التحريم أمر الله تعالى نبيه ﷺ والأمر لأمته من بعده بجهاد الكفار والمنافقين لما اشتملوا عليه من الكفر بالله تعالى وبرسوله ﷺ والصد عن سبيل الله فجمع بين المنافقين والكفار لاشتراكهم في الكفر والعياذ بالله، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٧٣]، ثم قرن بينهم في نهاية الحال والمآل بالاشتراك في الآخرة في الخلود في النار، فقال: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: (قُرِنَ الْمُنَافِقُونَ هُنَا بِالْكُفَّارِ: تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ سَبَبَ الْأَمْرِ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ قَدْ تَحَقَّقَ فِي الْمُنَافِقِينَ، فَجِهَادُهُمْ كَجِهَادِ الْكُفَّارِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ لَمَّا قَرَنَهُمْ فِي الْوَعِيدِ بِعَذَابِ الْآخِرَةِ إِذْ قَالَ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ﴾ [التَّوْبَة:٦٨]، وَأَوْمَأَ قَوْلُهُ هُنَالِكَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا آخَرَ، لَا جَرَمَ جَمْعَهُمْ عِنْدَ شَرْعِ هَذَا الْعَذَابِ الْآخَرِ لَهُمْ)(٧٠).

سادساً: التأكيد على فساد سعي المنافقين:

عقيدة الإنسان هي المحرك الرئيس لسلوكه وأفعاله، سواء كانت عقيدة صحيحة أم باطلة؛ ولذا فإن المؤمن وكذلك الكافر كلاهما سلوكه دليل المتأمل على باطنه لا يجد في كشف ذلك كثير عناء؛ لأن أفعاله مرآة تعكس ما في قلبه ونفسه.

أما المنافق الذي يضمر خلاف ما يظهر فإنه يحاول قدر جهده تزيين فعله وسلوكه بما يوافق من نافقه وصانعه، إلا أنه ومع شدة حرصه لابد وأن يظهر من سلوكه وفعله ما يدل على فساد باطنه وإن كان غالب أحواله التصنع والتزييف، فكل إنسان لابد وأن يخدم مبادئه ويحقق أهدافه، وهو في الغالب لم ينافق إلا ليتوصل

بذلك إلى بعض المكاسب في نظره. ولما كان باطن المنافق خبيثاً، مشتملاً على الكفر والضلال لا غرابة كان سعيه محققاً لما اشتملت عليه عقيدته الفاسدة؛ فسعيه مشتمل على الفساد على كل المستويات العقدية والأخلاقية والاجتماعية، وغيرها من مجالات السعي التي يحرصون من خلالها على إفساد أهل الإيمان، تحقيقاً لعقائدهم الضالة ومبادئهم الفاسدة، مع حرصهم على الظهور بزي المصلح لا المفسد، بل وتقدمهم بالأيمان الفاجرة على حسن نواياهم، إلا أن العبرة بالحقائق والمعاني لا بالألفاظ والمباني؛ ولذا اهتم القرآن الكريم بالتأكيد على فساد سعي المنافقين في مواطن من سياق الخطاب القرآني لهم.

ومن الآيات التي اهتمت بالتأكيد على ذلك:

– في سورة البقرة لما ذكر الله تعالى أهل النفاق، وأنهم ربما وعظوا من قبل أهل الإيمان بالبعد عن الفساد الذي ظهر بسعيهم ولاحت أماراته وظهرت علاماته تبجحوا بالكذب بأنهم إنما يسعون بالإصلاح، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾، بل وكأنهم يتندرون بمن نصحهم ويعرضون بأنه لا يميز الإصلاح من الإفساد وذلك بقصرهم الإصلاح على أنفسهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾(البقرة:١١)، لكن الله تعالى سجل عليهم حقيقة حالهم وواقع منتهى سعيهم وهو الفساد والإفساد في الأرض، ويستخدم الخطاب القرآني معهم نفس الأسلوب الذي يستخدمونه مع من نصحهم وفضحهم من أهل الإيمان بكشف حقيقة فسادهم وإفسادهم فيقصر الفساد فيهم هم، ليتضح بأن تجنيهم على أهل الحق بعدم الفهم والتمييز بين الإصلاح والإفساد هو من جملة إفسادهم وتلبيسهم ليصرفوا الناس عنهم، لكن الله تعالى الذي يعلم الظواهر والبواطن يؤكد بأنهم هم المفسدون حقيقة، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:١٢).

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: (الْقَائِلُ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْضُ مَنْ وَقَفَ عَلَى حَالِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمُ اطِّلَاعٌ عَلَى شُؤُونِهِمْ لِقَرَابَةٍ أَوْ صُحْبَةٍ، فَيُخْلِصُونَ لَهُمُ النَّصِيحَةَ وَالْمَوْعِظَةَ رَجَاءَ إِيمَانِهِمْ وَيَسْتُرُونَ عَلَيْهِمْ خَشْيَةً عَلَيْهِمْ مِنَ

الْعُقُوبَـةِ وَعِلْمًـا بِـأَنَّ النَّبِـيءَ ﷺ يُغْـضِـي عَـنْ زَلَّاتِهِـمْ. وَفِـي جَـوَابِهِمْ بِقَوْلِهِمْ: إِنَّمَـا نَحْـنُ مُـصْلِحُونَ مَـا يُفِيـدُ أَنَّ الَّـذِينَ قَـالُوا لَهُـمْ لَا تُفْـسِدُوا فِـي الْأَرْضِ كَـانُوا جَـازِمِينَ بِـأَنَّهُمْ مُفْسِدُونَ، وهو جواب لَا يَنْشَأُ إِلَّا عَنْ مَرَضِ الْقَلْبِ وَأَفَنِ الرَّأْيِ، لِأَنَّ شَأْنَ الْفَسَادِ أَنْ لَا يَخْفَى وَلَئِنْ خَفِيَ فَالتَّصْمِيمُ عَلَيْهِ وَاعْتِقَادُ أَنَّهُ صَلَاحٌ بَعْدَ الْإِيقَاظِ إِلَيْهِ وَالْمَوْعِظَـةِ إِفْرَاطٌ فِي الْغَبَاوَةِ أَوِ الْمُكَابَرَةِ وَجَهْلٌ فَوْقَ جَهْلٍ).

وَإِيقَاعهمُ الْفَسَادَ مَرَاتِبٌ:

أَوَّلُهَـا: إِفْسَادُهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِالْإِصْـرَارِ عَلَـى الْأَدْوَاءِ الْقَلْبِيَّـةِ وَمَـا يَتَرَتَّـبُ عَلَيْهَـا مِـنَ الْمَـذَامِّ وَيَتَوَلَّدُ مِنَ الْمَفَاسِدِ.

الثَّانِيَةُ: إِفْسَادُهُمُ النَّاسَ بِبَثِّ تِلْكَ الصِّفَاتِ وَالدَّعْوَةِ إِلَيْهَا، وَإِفْسَادُهُمْ أَبْنَاءَهُمْ وَعِيَالَهُمْ فِي اقْتِدَائِهِمْ بِهِمْ فِي مَسَاوِيهِمْ.

الثَّالِثَـة: إِفْسَادُهُمْ بِالْأَفْعَـالِ الَّتِـي يَنْشَأُ عَنْهَـا فَسَادُ الْمُجْتَمَـعِ، كَإِلْقَـاءِ النَّمِيمَـةِ وَالْعَـدَاوَةِ وَتَسْعِيرِ الْفِتَنِ وَتَأْلِيبِ الْأَحْزَابِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَإِحْدَاثِ الْعَقَبَاتِ فِي طَرِيقِ الْمُصْلِحِينَ.

وَلَعَلَّ الْمُنَـافِقِينَ قَدْ أَخَذُوا مِنْ ضُـرُوبِ الْإِفْسَادِ بِـالْجَمِيعِ، فَلِذَلِكَ حُـذِفَ مُتَعَلِّقُ تُفْسِدُوا تَأْكِيدًا لِلْعُمُومِ الْمُسْتَفَادِ مِنْ وُقُوعِ فِي حَيِّزِ النَّفْيِ.

وَذِكْرُ الْمَحَلِّ الَّذِي أَفْسَدُوا مَا يَحْتَوِي عَلَيْهِ –وَهُوَ الْأَرْضُ– لِتَفْظِيعِ فَسَادِهِمْ بِأَنَّهُ مَبْثُـوثٌ فِـي هَـذِهِ الْأَرْضِ لِأَنَّ وُقُوعَـهُ فِـي رُقْعَـةٍ مِنْهَـا تَشْوِيهٌ لِمَجْمُوعِهَـا، وَجَـاءُوا بِإِنَّمَـا الْمُفِيـدَةِ لِلْقَصْرِ رَدًّا عَلَـى قَـوْلِ مَـنْ قَـالَ لَهُـمْ لَا تُفْسِدُوا، لِأَنَّ الْقَائِـلَ أَثْبَـتَ لَهُـمْ وَصْـفَ الْفَسَاد. وَاخْتِيرَ فِي كَلَامِهِمْ حَرْفُ (إِنَّمَا) لِأَنَّـهُ يُخَاطَـبُ بِـهِ مُخَاطَـبٌ مُصِرٌّ عَلَـى الْخَطَـأِ، وَجُعِلَتْ جُمْلَـةُ الْقَصْرِ اسْمِيَّةً لِتُفِيدَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا اتِّصَافَهُمْ بِالْإِصْلَاحِ أَمْرًا ثَابِتًا دَائِمًا، ثمَّ رد عَلَيْهِمْ فِي غُرُورِهِمْ وَحَصْرِهِمْ أَنْفُسَهُمْ فِي الصَّلَاحِ بِطَرِيقٍ هُوَ أَبْلَـغُ مِنَ الطَّرِيقِ الَّذِي قَالُوهُ، فقَصْرَ الْإِفْسَادِ عَلَيْهِمْ بِحَيْثُ لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِهِمْ، وَذَلِكَ يَنْفِي حَصْرَهُمْ أَنْفُسَهُمْ فِي الْإِصْلَاحِ وَيَنْقُضُهُ، وَقَدْ يُفِيدُ ذَلِكَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَيْسُوا مِمَّنْ يَنْتَظِمُ فِي عِدَادِ الْمُصْلِحِينَ لِأَنَّ شَأْنَ الْمُفْسِدِ عُرْفًا أَنْ لَا يَكُونَ مُصْلِحًا إِذِ الْإِفْسَادُ هَيِّنُ الْحُصُولِ وَإِنَّمَا يَصُدُّ عَنْـهُ الْوَازِعُ فَإِذَا خَلَـعَ الْمَرْءُ عَنْـهُ الْوَازِعَ وَأَخَذَ فِي الْإِفْسَادِ هَانَ عَلَيْهِ الْإِفْسَادُ ثُمَّ تَكَرَّرَ حَتَّـى

يُصْبِحَ سَجِيَّةً وَدَأْبًا لَا يَكَادُ يُفَارِقُ مَوْصُوفَهُ، وَحَرْفُ (أَلَا) لِلتَّنْبِيهِ إِعْلَانًا لِوَصْفِهِمْ بِالْإِفْسَادِ، وَقَدْ أَكَّدَ قَصْرَ الْفَسَادِ عَلَيْهِمْ بِضَمِيرِ الْفَصْلِ. وَدُخُولُ (إِنَّ) عَلَى الْجُمْلَةِ وَقَرْنُهَا بِأَلَا الْمُفِيدَةِ لِلتَّنْبِيهِ وَذَلِكَ مِنَ الِاهْتِمَامِ بِالْخَبَرِ وَتَقْوِيَتِهِ دَلَالَةً عَلَى سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَنَّ أَفْعَالَهُمُ الَّتِي يَبْتَهِجُونَ بِهَا وَيَزْعُمُونَهَا مُنْتَهَى الْحِذْقِ وَالْفِطْنَةِ وَخِدْمَةِ الْمصلحَة الْخَالِصَة آيلة إِلَى فَسَادٍ عَامٍّ لَا مَحَالَةَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَمْ يَهْتَدُوا إِلَى ذَلِكَ لِخَفَائِهِ وَلِلْغِشَاوَةِ الَّتِي أُلْقِيَتْ عَلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ أَثَرِ النِّفَاقِ وَمُخَالَطَةِ عُظَمَاءِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ حَالَ الْقَرِينِ وَسَخَافَةَ الْمَذْهَبِ تَطْمِسُ عَلَى الْعُقُولِ النَّيِّرَةِ وَتَخِفُّ بِالْأَحْلَامِ الرَّاجِحَةِ حَتَّى تَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ)[٧١].

– في سورة البقرة كذلك لما ذكر الله تعالى المنافق الذي أتى النبي ﷺ معلنا له الإيمان مؤكداً ذلك بإشهاد الله تعالى على ما في قلبه، فأظهر له خلاف ما يبطنه حقيقة في نفسه من الكفر والعناد، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة:٢٠٤)، فلما خرج من عند النبي ﷺ سرعان ما عاد إلى تحقيق ما يبطنه في نفسه من الكفر والحنق على أهل الإيمان بإتلاف أموالهم حين سنحت له الفرصة، فسجل الله تعالى عليه ذلك في كتابه لكن بصيغة الخطاب للغائب للدلالة على أن تلك ليست صفة ذلك المنافق بمفرده بل هي من الصفات اللازمة للمنافين عموماً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ (البقرة:٢٠٥).

قال ابن كثير رحمه الله: (هذا الْمُنَافِقُ فِي حَالِ خُصُومَتِهِ، يَكْذِبُ، ويَزْوَرّ عَنِ الْحَقِّ وَلَا يَسْتَقِيمُ مَعَهُ، بَلْ يَفْتَرِي وَيَفْجُرُ، فهُوَ أَعْوَجُ الْمَقَالِ، سَيِّئُ الفعَال، كَلَامُهُ كَذِب، وَاعْتِقَادُهُ فَاسِدٌ، وَأَفْعَالُهُ قَبِيحَةٌ، لَيْسَ لَهُ هِمَّةٌ إِلَّا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ، وَإِهْلَاكَ الْحَرْثِ)[٧٢].

وقال السعدي رحمه الله: (أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، إذا تكلم راق كلامه للسامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول

بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعله، فلو كان صادقا لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق. فإذا خاصمته وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين، فهذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك يجتهد على أعمال المعاصي، التي هي إفساد في الأرض)[٧٣].

- في سورة النور وبعد أن ذكر الله تعالى حادثة الإفك التي تولى كبرها أهل النفاق في المدينة مع أطهر القلوب وأتقى النفوس بيت رسول الله ﷺ وزوجه عائشة الحصان الرزان رضي الله عنها، حذر الله تعالى من منهج هذه الطائفة المريضة القلوب وطريقتهم في إشاعة الفساد بين المؤمنين وسجل عليهم تبارك وتعالى محبة ذلك، ليلفت انتباه المؤمن إلى أن من أحب شيئاً حرص قدر مستطاعه على تحقيقه بكل سبيل، واستعمل لتأكيد ذلك لفظ الإشاعة بصيغة المضارع بكل ما تحمله من دلالة على ذلك، وهذا الذي يؤكده تاريخ هذه الفئة الفاسدة المريضة على مر عصور الأمة، وبخاصة في هذا الزمان الذي ابتلي فيه المسلمون بالتفرق والضعف وسير فئام ليست بالقليلة منهم خلف أعدائهم مناهجًا وأخلاقًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(النور: ١٩)، وهكذا تختم الآية بالتهديد بعذاب الدنيا والآخرة لمن كان هذا منهجه وطريقته.

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: (حذَّرَ اللَّهُ مِنَ مَحَبَّةِ شُيُوعِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ، وَاسْمُ الْمَوْصُولِ يَعُمُّ كُلَّ مَنْ يَتَّصِفُ بِمَضْمُونِ الصِّلَةِ فَيَعُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، فَهُوَ تَحْذِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَإِخْبَارٌ عَنِ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُشْرِكِينَ، وَجَعَلَ الْوَعِيدَ عَلَى الْمَحَبَّةِ لِشُيُوعِ الْفَاحِشَةِ فِي الْمُؤْمِنِينَ تَنْبِيهًا عَلَى أَنَّ مَحَبَّةَ ذَلِكَ تَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ذَلِكَ دَالَّةٌ عَلَى خُبْثِ النِّيَّةِ نَحْوَ الْمُؤْمِنِينَ. وَمِنْ شَأْنِ تِلْكَ الطَّوِيَّةِ أَنْ لَا يَلْبَثَ صَاحِبُهَا إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى يَصْدُرَ عَنْهُ مَا هُوَ محب لَهُ أَوْ يُسَرَّ بِصُدُورِ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِ، فَالْمَحَبَّةُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ التَّهَيُّؤِ لِإِبْرَازِ مَا يُحِبُّ وُقُوعَهُ. وَجِيءَ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ

الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ)[٧٤].

سابعًا: عناية الخطاب القرآني بإبراز الصفات النفسية المسببة للنفاق:

النفاق بإظهار الإنسان خلاف ما يبطن إشعار بجبن النفس وضعف الشجاعة؛ لأن الشجاعة تحمل الإنسان على الصراحة والبعد عن المصانعة. وهذه السمة من سمات أهل النفاق هي التي تحملهم غالبًا على ستر ما في نفوسهم من الكفر والعياذ بالله، والتصنع بصلاح الظاهر مع فساد الباطن، ليسلموا في ذوات أنفسهم أو ليسلم لهم ما بأيديهم، فهم لا يملكون من الشجاعة ما يملكه أهل الإيمان الذين يتفق ظاهرهم وباطنهم بالصلاح ولا حتى الكافر الذي يتوافق فساد ظاهره مع فساد باطنه، ولذا فهم يعملون في الخفاء، ولا يملكون الشجاعة على المواجهة، بل سرعان ما يتوارى الواحد منهم حين ينكشف أمره خلف الإيمان الكاذبة بصلاح نيته وحسن قصده، أو الوعود الزائفة بتصحيح مساره.

وقد اعتنى القرآن الكريم بتوصيف الحالة النفسية للمنافقين، وتسليط الضوء على السمات النفسية التي أدت بهم إلى النفاق، ومن ذلك على سبيل المثال:

– في سورة التوبة، ذكر الله تعالى جملة كبيرة من صفات المنافقين، فذكر من ضمن ذلك ما يتعلق بصفاتهم النفسية من الجبن والخوف، وأنهم يتمنون أن لو وجدوا مفرًا يفرون إليه، أيًا كان ذلك المفر سواء كان حصنًا أو مغارة في جبل وعر أو نفقًا تحت الأرض لبادروا إليه مسرعين لا يلوون على شيء خوفًا وجبنًا من الموت المتوقع عندهم من الجهاد في سبيل الله، أو من جراء اطلاع أهل الإيمان على فساد بواطنهم، وذلك لأنهم ليسوا من أهل الصدق في الإيمان الذين يراقبون الله ولا يخافون أحدًا سواه، قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (التوبة:٥٦، ٥٧).

قال ابن كثير رحمه الله: (يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، عَنْ جَزَعِهِمْ وَفَزَعِهِمْ وَفَرَقِهِمْ وَهَلَعِهِمْ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى الْحَلِفِ، [وأنهم] لَوْ يَجِدُونَ حِصْنًا يَتَحَصَّنُونَ بِهِ، وَحِرْزًا يَحْتَرِزُونَ بِهِ، لَوَلَّوْا يُسْرِعُونَ فِي ذَهَابِهِمْ عَنْكُمْ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا يُخَالِطُونَكُمْ كُرْهًا لَا مَحَبَّةً، وَوَدُّوا أَنَّهُمْ لَا يُخَالِطُونَكُمْ، وَلَكِنْ لِلضَّرُورَةِ أَحْكَامٌ؛ وَلِهَذَا لَا

يَزَالُونَ فِي هَمٍّ وَحُزْنٍ وغَمٍّ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ لَا يَزَالُ فِي عِزٍّ وَنَصْرٍ وَرِفْعَةٍ؛ فَلِهَذَا كُلَّمَا سُرّ الْمُؤْمِنُونَ سَاءَهُمْ ذَلِكَ، فَهُمْ يَوَدُّونَ أَلَّا يُخَالِطُوا الْمُؤْمِنِينَ)(٧٥).

– في سورة الأحزاب، ذكر الله تعالى ضمن أحداث غزوة الخندق نفسيات المنافقين، وما خيم عليها من الخوف وما تغلل فيها من الفزع والهلع من القتال، فسجل عليهم القرآن الحرص على الفرار، فقال تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (الأحزاب:١٣)، فهم لفساد بواطنهم وكفر قلوبهم لو دخل عليهم أهل الكفر بيوتهم ثم أرادوهم على الكفر لكانوا لهم منقادين طائعين، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ (الأحزاب:١٤). ثم تهددهم تعالى بأنهم مهما فروا وحاولوا النجاء من الموت أو القتل، إلا أن الحقيقة التي تغيب عنهم لكفرهم ونفاقهم أنهم حتى لو استطاعوا أن يفروا من الموت أو القتل فإنهم لا يمتعون إلا قليلًا ثم لابد لهم منه فينتقلون والعياذ بالله إلى نار جهنم وبئس المصير، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا * قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (الأحزاب:١٦، ١٧).

ثم ذكر الله تعالى صفتهم اللازمة لهم وهي الجبن والخوف، في تسجيل قراني دقيق لنفسياتهم؛ إذ شبههم تعالى من فرط خوفهم بالذي يغشى عليه في حال سكرة الموت من خوفه ورهبته، فقال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ (الأحزاب:١٩)، فهم في حال الشدة أشد الناس خوفاً وجبنًا، وفي حال الأمن أشدهم أذية لأهل الإيمان بألسنتهم، حتى إنهم يتمنوا أن لو كانوا في تلك الأحداث التي حصلت للنبي ﷺ وأصحابه في الخندق من أهل البوادي يتسامعون بأخبارهم من غير أن يكونوا معهم خوفًا وجبنًا، قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا

إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٠).

قال الطبري رحمه الله: (يستأذن بعضهم رسول الله ﷺ في الإذن بالانصراف عنه إلى منزله، ولكنه يريد الفرار والهرب من عسكر رسول الله ﷺ، ولو دخلت المدينة على هؤلاء من جوانبها ونواحيها ثم سئلوا الرجوع من الإيمان إلى الشرك لفعلوا ورجعوا عن الإسلام وأشركوا، وما احتبسوا عن إجابتهم إلى الشرك إلا قليلا ولأسرعوا إلى ذلك)[٧٦].

- في سورة الحشر ذكر الله تعالى المنافقين، وكيف أنهم في صف الكافرين يوالونهم ويؤلبونهم على المؤمنين بما يعدونهم به من الوقوف معهم ومناصرتهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾، ولأنهم كاذبون في تلك الوعود، فهم أشد جبنًا من أن يفعلوا ذلك، فهم للفرار أقرب، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ (الحشر: ١١، ١٢)، ثم سجل عليهم القرآن حقيقة ما تتميز به نفوسهم من الجبن والخوف، وأنهم ليسوا من أهل الشجاعة الذين يقابلون أعداءهم مقابلة، بل إنما يعملون من خلف الستر والجدر، فقال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر: ١٣، ١٤).

قال الرازي: (ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ خَوْفَ الْمُنَافِقِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَشَدُّ مِنْ خَوْفِهِمْ مِنَ اللَّه تعالى، [لأنهم] لَا يَعْلَمُونَ عَظَمَةَ اللَّه حَتَّى يَخْشَوْهُ حَقَّ خَشْيَتِهِ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْيَهُودَ وَالْمُنَافِقِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى مُقَاتَلَتِكُمْ مُجْتَمِعِينَ إِلَّا إِذَا كَانُوا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ بِالْخَنَادِقِ وَالدُّرُوبِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ، وَذَلِكَ بِسَبَبِ أَنَّ اللَّه أَلْقَى فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ، وَأَنَّ تَأْيِيدَ اللَّه وَنُصْرَتَهُ مَعَكُمْ)[٧٧].

ثامنًا: وعظ المنافقين في السياق القرآني أصالة أو بتوجيه أهل الإيمان لذلك:

الله تبارك وتعالى رحيم بعباده، يمهلهم ليتوبوا، ويدعوهم ليرجعوا إليه ويؤوبوا؛

ولذا كان من أسمائه تبارك وتعالى: الله والعفو والغفور والغفار والرحيم والتواب والسِّتير والودود والرؤوف واللطيف والكريم والسلام، وكل اسم منها مشتمل على صفة تدل على سعة رحمة الله تعالى وعظيم فضله وإحسانه على عباده، ومن جملة ذلك أنه تبارك وتعالى مهما جنى عبده من الذنوب والمعاصي إلا أنه سبحانه لم يئيس أحداً من رحمته ما دام في زمان المهلة والإمكان. والمنافق والعياذ بالله أشد الناس جرمًا وأولاهم ملامة وذمًا وأحقهم عقابًا، فهو قد جمع مع الإساءة لجناب الله العزيز بالكفر سوء الظن بالله العلي تبارك وتعالى، والكذب والمصانعة والتزيي بزي المؤمنين، ومحاولة مخادعة الله ومخادعة أهل الإيمان، ومحاربة الحق وأهله، والسعي في إطفاء نور الله والفساد في الأرض، والعيش في ضل الإسلام والتفيئ بظلال شريعته مع عدم استحقاقه لذلك بل والحرص على محاربته، فكل بلية في أهل الكفر هي في المنافقين وزيادة، ومع هذا كله فإن رحمة الله تعالى شملتهم بدعوتهم إلى التوبة، ورغبتهم في تصحيح مسارهم والبعد عن النفاق والانتظام في سلك أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣]، فإطلاقات الآية وعموماتها تشي بدخول كل تائب مهما عظم ذنبه أو تعاظم جرمه، ومن جملتهم أهل النفاق(٧٨)، ومثلها الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه عن أنس ﷺ، قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أُبَالِي"(٧٩).

والمتأمل في سياقات الخطاب القرآني للمنافقين يلحظ دعوة الله تبارك وتعالى أهل النفاق للتوبة وتصحيح المسار سواء منه مباشرة أو بتوجيه أهل الإيمان بالقيام بتلك المهمة، ومن تلك الآيات التي عنيت بذلك:

– في سورة النساء، لما ذكر الله تعالى أهل النفاق وأنهم يفضلون حكم الطواغيت على حكم الله تعالى ورسوله ﷺ، وبين أنهم يزعمون أنهم يفعلون ذلك رغبة في زعمهم

التوفيق بين أهل الإيمان وأهل الكفر، وأنهم لن يؤمنوا حتى يحكموا الله ورسوله في شؤونهم، وجه رسوله ﷺ لنصحهم ووعظهم بالقول البليغ المؤثر كاشفًا لهم عن نفاقهم، وأنهم إذا نجم منهم ذلك وظهر سيؤخذون به لا محالة، فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ (النساء:٦٣).

قال الزمخشري: (أى قل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة وقلوبهم المطوية على النفاق قولا بليغا، وأنّ اللَّه يعلم ما في قلوبكم لا يخفى عليه فلا يغنى عنكم إبطانه. فأصلحوا أنفسكم وطهروا قلوبكم وداووها من مرض النفاق، وإلا أنزل اللَّه بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك من انتقامه، وشراً من ذلك وأغلظ. أو قل لهم في أنفسهم– خاليا بهم، ليس معهم غيرهم، مسارّا لهم بالنصيحة، لأنها في السر أنجع، وفي الإمحاض أدخل– قولا بليغا يبلغ منهم ويؤثر فيهم)[٨٠].

– في سورة النساء، بعد أن ذكر الله تعالى جملة من صفات المنافقين، ثم ختم ذلك ببيان أشد العاقبة لهم بالدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (النساء:١٤٥)، فتح الله تعالى باب الأمل لمن شاء منهم ورغب في استدراك حاله وتصحيح مساره بالتوبة، وأنه متى ما فعل ذلك فأصلح حاله فإن الله تعالى يقبل توبته ويضمه في زمرة أهل الإيمان، فقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٦، ١٤٧).

قال ابن كثير: (أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا تَابَ عَلَيْهِ وقَبِلَ نَدَمَهُ إِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ وَأَصْلَحَ عَمَلَهُ، وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ، فبَدَّل الرِّيَاءَ بِالْإِخْلَاصِ، فَيَنْفَعُهُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَإِنَّ قَلَّ)[٨١].

الخاتمة:

في ختام بحثي هذا أحمد الله تعالى آخرًا كما حمدته أولًا، حمدًا يليق بجلاله وعظمته، كما يحب ربنا ويرضى، على ما من به تعالى من إتمامه، منبهًا على جملة من أهم النتائج التي وقفت عليها من خلالي بحثي في هذا الموضوع، وهي:

١-أن مرض القلب مصطلح شرعي ورد في نصوص الشرع، وهو أعم من النفاق؛ لأنه يشمل النفاق الأكبر -وهو أشده- وما دون ذلك من أمراض للقلوب لا تصل لحد النفاق الأكبر.

٢-أن أصناف النفاق في القرآن هي من النفاق الأكبر المخرج من الملة -والعياذ بالله؛ ولذا فإنه إذا أطلق في نصوص الكتاب والسنة انصرف له، كما نبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

٣-أن الوقوف على سمات خطاب الله تعالى للمنافقين من الأهمية بمكان؛ لأنه يعطي المنهج الحق في التعامل مع فئة متلونة، تعتمد في منهجها على إخفاء حقيقتها والتلون بكل لون، مما قد يخفى على كثير من الناس.

أما التوصيات: فيمكن إجمالها في التالي:

• ضرورة دراسة سمات خطاب الله تعالى وخطاب رسوله ﷺ وتعامله لأصناف الناس، واستيفائها بالبحث؛ لما لذلك من أهمية في التعامل معهم، وبخاصة الكافرين والمنافقين، فقد نال موضوع التعامل معهم من الضبابية في الصورة بسبب غلو الغالين أو تفريط المفرطين المميعين ما يستدعي ذلك.

أسأل الله العظيم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به من خطه أو قرأه فأفاد منه، أو تعقبه وصوبه في الدنيا والآخرة، وأن يغفر ما فيه من زلل، كتابُ الله تعالى وسنةُ نبيه ﷺ منه بريئان، والحمد لله تعالى الذي بنعمته وحده تتم الصالحات.

هوامش البحث:

([1]) ليس المقصود هنا حصر أسلوب القرآن معهم في ذلك، إنما هو من باب ضرب المثال في مقابل أسلوب أهل الإيمان لإيمانهم، فالقرآن استخدم كذلك مع الكفار أسلوب الترغيب للدخول في الإسلام، وذلك في الآيات التي دعتهم إلى التوبة.

([2]) انظر: لسان العرب، لابن منظور (١٠/٣٥٩)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٧/٣٠٠).

([3]) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٥/٤٥٤)، والعين، للخليل بن أحمد (٥/١٧٨)، وتهذيب اللغة، للأزهري (٩/١٥٦)، ولسان العرب (١٠/٣٥٨).

([4]) لسان العرب (٣٥٩/١٠).
([5]) مجموع الفتاوى (٣٠٠/٧) بتصرف.
([6]) ذكره ابن بطة في الإبانة الكبرى (٦٩١/٢).
([7]) ذكره البغوي في شرح السنة، رقم [٤١٣٨].
([8]) ذكره ابن بطة في الإبانة الكبرى (٦٩٣/٢).
([9]) ذكره الخرائطي في مساوئ الأخلاق (٦٢)، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف برقم [٣٥٦٤٢]، وأبو بكر الخلال في كتاب السنة (١١١/٤)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (٦٩١/٢).
([10]) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٦/١)، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم (٢٥٠/١).
([11]) تفسير الطبري (٣٢٦/٢٠).
([12]) جامع المسائل (١٣٣/٤).
([13]) الصلاة وأحكام تاركها (٦٠). وانظر: صفات المنافقين، لابن القيم (٦٠)، ومدارج السالكين، لابن القيم (٣٥٤/١).
([14]) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، رقم [٢٣١].
([15]) انظر: شرح النووي على مسلم (١٧٢/٢).
([16]) تفسير الطبري (٤٩٥/١٩).
([17]) الأجرد: الذي لا غلاف عليه، والمراد بيان طهارته ونظافته من أمراض الشهوات والشبهات.
([18]) الأغلف: الذي عليه غلاف يمنع دخول الحق إليه، وهو المعبر عنه في القرآن بالطبع والختم.
([19]) المُصْفَح: صفح الشيء وجهه وناحيته، والمراد به المنافق الذي له وجهان يأتي كل قوم بوجه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣٤/٣).
([20]) أخرجه أحمد في مسنده، رقم [١١١٢٩]، وهو عند ابن أبي شيبة في مصنفه موقوف على حذيفة ﷺ، رقم [٣٠٤٠٤]، ورقم [٣٧٣٩٥]، وذكر ابن كثير في تفسيره رواية أبي سعيد، وقال: هذا إسناد جيد حسن (١٩٣/١).
([21]) انظر للتنويع في عرض الأقسام: ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ، لعبدالرحمن بن حبنكة الميداني (٥٩/١-٧٢)، وقد أفدت من كتابه رحمه الله.
([22]) المحرر الوجيز (٩٠/١- ٩٤).
([23]) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٦/١-١٨٤) بتصرف.
([24]) المحرر الوجيز (٢٧٩/١).
([25]) انظر: المحرر الوجيز (٢٧٩/١)، والتفسير الكبير، للرازي (٣٤٤/٥).
([26]) تفسير الطبري (٣٢٣/٩) بتصرف، وانظر: البحر المحيط، لأبي حيان (١٠٤/٤).
([27]) التحرير والتنوير (١٩/١١)، وانظر: التفسير الكبير (١٣٠/١٦).

([28]) انظر من الآيات في هذا الصنف: آل عمران [١١٨-١٢٠]، النساء [٨٨]، المائدة [٦١].
([29]) انظر: تاريخ الطبري (٣٩٨/٤)، والبداية والنهاية، لابن كثير (١٧٣/٧).
([30]) تفسير ابن كثير (٤٣٩/٢).
([31]) التحرير والتنوير (٢٤١/٥) بتصرف.
([32]) طريق الهجرتين وباب السعادتين (٤٠٤).
([33]) تفسير الطبري (١٣/٢٠)، وروي نحوه عن مجاهد بن جبر عند ابن أبي حاتم في تفسيره برقم [١٧١٧١].
([34]) المصدر السابق.، وتفسير ابن أبي حاتم، رقم [١٧١٧٦].
([35]) تفسير الطبري (١٢/٢٠).
([36]) التحرير والتنوير (٢١٥/٢٠).
([37]) تفسير الطبري (٣٩٤/٢٣).
([38]) المحرر الوجيز (٣١٢/٥).
([39]) تفسير ابن كثير (١٢٥/٨).
([40]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (١٩١/٨).
([41]) مجموع الفتاوى (٢٧١/٧)، وانظر: جامع المسائل، لابن تيمية (٧٢/٦).
([42]) مجموع الفتاوى (٢٨٠/٧) بتصرف.
([43]) انظر: لسان العرب (٤١٩/١٢).
([44]) انظر: الاتقان في علوم القرآن (٣٧٦/٢)،
([45]) انظر: الكشاف، للزمخشري (٥٤/١)، والتحرير والتنوير (٢٦٢/١)، وهو أحد الوجهين في معنى أل التعريف التي في الناس.
([46]) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٩٥/١)، وظاهرة النفاق وخبائث المنافقين (١٥٨/١).
([47]) انظر: تفسير ابن كثير (١٣٢/٣)، وتفسير السعدي (٢٣٥)، وفي ضلال القرآن، لسيد قطب (٩١٦/٢).
([48]) ومن الآيات التي تضمنت مثل ذلك: التوبة [٥٨، ٦١، ٦٢، ٤٦، ٦٥، ٦٧، ٧٤، ٧٩، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٨، ١٠٧]، النور [١٩، ٤٧، ٤٩، ٦٣]، الأحزاب [١٢، ١٣]، الحشر [١١]، المنافقون [٤، ٥، ٧، ٨].
([49]) انظر: تفسير الطبري (٣٧٨/٧)، والسيرة النبوية، لابن هشام (٦٤/٢).
([50]) ومن الآيات التي تضمنت مثل ذلك: سورة النساء [٧٧-٩١] [١٠٧-١٠٩] [١٣٨-١٤٧]، سورة التوبة [٤٢-٦٨] [٧٣-١١٠] [١٢٤-١٢٧]، سورة النور [١١] [٤٧-٥٤] [٦٣]، سورة العنكبوت [٩]، سورة الأحزاب [١٢-٢٠] [٦٠]، سورة المجادلة [١٤-١٩]، سورة الحشر [١١-١٢]، سورة المنافقون [١-٨].

([51]) انظر: تفسير ابن كثير (١/٥٦٣-٥٦٤).
([52]) انظر: تفسير الطبري (٤/٢٢٩).
([53]) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٢/٣٦٤).
([54]) انظر: تفسير الطبري (٤/٢٣٠)، وأخرجه من نفس الطريق ابن أبي حاتم في تفسيره (٢/٣٦٣).
([55]) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: التفسير، باب: قوله: {يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل}، رقم [٤٩٠٧]، وأخرجه مسلم في كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم [٢٥٨٤]، والطبري في تفسيره (٢٣/٤٠٢).
([56]) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام (٢/١٩٠)، والبداية والنهاية (٥/٥٣٥).
([57]) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٢٨٩)، والتحرير والتنوير (٢٨/٩٩).
([58]) تفسير السعدي (٤٢) بتصرف.
([59]) انظر: أساس اللغة (١/٤١٥)، ومعجم مقاييس اللغة (٣/١٠)، والتفسير الكبير (١٠/١٢٠)..
([60]) المحرر الوجيز (٢/٧١) بتصرف.
([61]) في ظلال القرآن (٢/٦٨٧) بتصرف.
([62]) تفسير ابن كثير (٢/٣٦٤) بتصرف.
([63]) التفسير الكبير (١٠/١٥٣) بتصرف.
([64]) ومن الآيات الواردة في ذلك: سورة التوبة [٤٢-٤٧]، [٥٦-٥٨]، سورة النور [٤٧-٥٠]، سورة الأحزاب [١٢-١٧]، سورة المنافقون [١-٣].
([65]) انظر: صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)، رقم [٤٩٠٧]، وفتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (٨/٣٣٦).
([66]) انظر: تفسير الطبري (١٤/٣٦٠).
([67]) تفسير الكشاف (١/٥٧٨) بتصرف.
([68]) التفسير الكبير (١٦/٩٨) بتصرف.
([69]) تفسير السعدي (٣٤٣).
([70]) التحرير والتنوير (١٠/٢٦٥).
([71]) التحرير والتنوير (١/٢٣٨-٢٤٠) بتصرف.
([72]) تفسير ابن كثير (١/٥٦٣) بتصرف.
([73]) تفسير السعدي (٩٣) بتصرف.
([74]) التحرير والتنوير (١٨/١٨٤) بتصرف.
([75]) تفسير ابن كثير (٤/١٦٣) بتصرف.
([76]) تفسير الطبري (٢٠/٢٢٦) بتصرف.

([77]) التفسير الكبير (٢٩/٥١٠) بتصرف.
([78]) انظر: تفسير ابن كثير (٧/١٠٦).
([79]) أخرجه الترمذي برقم [٣٥٤٠]، وأخرجه الإمام أحمد في المسند من حديث أبي ذر ﷺ برقم [٢١٤٧٢،٢١٥٠٥] والبغوي في شرح السنة برقم [١٢٩٢]، وقد صحح الألباني رواية الترمذي.
([80]) الكشاف (١/٥٢٧).
([81]) تفسير ابن كثير (٢/٤٤٢) بتصرف يسير.

المصادر والمراجع:

١- الإبانة الكبرى لابن بطة. المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: ٣٨٧هـ). المحقق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل. الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض. الطبعة: بدون.

٢- الإتقان في علوم القرآن. المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ).المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.

٣- أساس البلاغة. المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ).تحقيق: محمد باسل عيون السود. الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨ م.

٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن.المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ). الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت – لبنان. عام النشر: ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م.

٥- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان.المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي. الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية. الطبعة: بدون.

٦- البحر المحيط في التفسير. المؤلف: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: ٧٤٥هـ).المحقق: صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت. الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

٧- البداية والنهاية.المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).المحقق: علي شيري. الناشر: دار إحياء التراث العربي. الطبعة: الأولى ١٤٠٨، هـ – ١٩٨٨م.

٨- تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري.المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)(صلة تاريخ الطبري لعريب بن

سعد القرطبي، المتوفى: ٣٦٩هـ).الناشر: دار التراث – بيروت. الطبعة: الثانية– ١٣٨٧هـ.
٩- التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد.المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ).الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس. سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
١٠- تفسير القرآن العظيم.المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).المحقق: سامي بن محمد سلامة. الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م.
١١- تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم.المؤلف: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ).المحقق: أسعد محمد الطيب. الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز– المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثالثة– ١٤١٩هـ.
١٢- تهذيب اللغة.المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ).المحقق: محمد عوض مرعب. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.
١٣- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ).المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م.
١٤- جامع البيان في تأويل القرآن.المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).المحقق: أحمد محمد شاكر. الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.
١٥- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي.المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ).تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة. الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ– ١٩٦٤م.
١٦- جامع المسائل.المؤلف: تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ).تحقيق: محمد عزير شمس. إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد. الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع. الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.
١٧- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه – صحيح البخاري.المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي.المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر. الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي). الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٨- الدر المنثور في التفسير بالمأثور.المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ).الناشر: دار الفكر – بيروت.
١٩- سنن الترمذي.المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ).تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥). الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر. الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥ م.
٢٠- السنة.المؤلف: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ).المحقق: د. عطية الزهراني. الناشر: دار الراية– الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م.
٢١- السيرة النبوية لابن هشام.المؤلف: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٢١٣هـ).تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي. الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ – ١٩٥٥ م.
٢٢- شرح السنة.المؤلف: محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى: ٥١٦هـ).تحقيق: شعيب الأرنؤوط-محمد زهير الشاويش. الناشر: المكتب الإسلامي – دمشق، بيروت. الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م.
٢٣- صفات المنافقين.المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).الناشر: الكتاب منشور على موقع وزارة الأوقاف السعودية بدون بيانات. عام النشر: ١٤١٠ هـ.
٢٤- الصلاة وأحكام تاركها.المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).الناشر: مكتبة الثقافة بالمدينة المنورة. الطبعة: بدون.
٢٥- طريق الهجرتين وباب السعادتين.المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).الناشر: دار السلفية، القاهرة، مصر. الطبعة: الثانية، ١٣٩٤هـ.
٢٦- ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ.المؤلف: عبدالرحمن بن حبنكة الميداني.الناشر: دار القلم، دمشق. الطبعة:الأولى، ١٤١٤ هـ.
٢٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري.المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي. الناشر: دار المعرفة – بيروت، ١٣٧٩.رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب. عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

٢٨- في ظلال القرآن.المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ).الناشر: دار الشروق – بيروت- القاهرة. الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ.
٢٩- كتاب العين.المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ).المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي. الناشر: دار ومكتبة الهلال. الطبعة: بدون.
٣٠- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار.المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ).المحقق: كمال يوسف الحوت. الناشر: مكتبة الرشد – الرياض. الطبعة: الأولى، ١٤٠٩.
٣١- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل.المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ).الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة- ١٤٠٧ هـ.
٣٢- لسان العرب.المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ).الناشر: دار صادر – بيروت. الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ.
٣٣- مجموع الفتاوى.المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ).المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم. الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية. عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.
٣٤- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز.المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢هـ).المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى- ١٤٢٢هـ.
٣٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي. الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٣٦- مساوئ الأخلاق ومذمومها.المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ).حققه وخرج نصوصه وعلق عليه: مصطفى بن أبو النصر الشلبي. الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، جدة. الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.
٣٧- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ.المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ).المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي. الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٣٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل.المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ).المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون. إشراف: د

عبد الله بن عبد المحسن التركي.الناشر: مؤسسة الرسالة. الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٣٩- معجم مقاييس اللغة.المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: ٣٩٥هـ).المحقق: عبد السلام محمد هارون. الناشر: دار الفكر. عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٤٠- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير.المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ).الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

٤١- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ).الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثانية، ١٣٩٢.

٤٢- النهاية في غريب الحديث والأثر.المؤلف: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ).الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م. تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي.